تعريب : صلاح الغمراوي

داء اللمز النفسي

إيا[illegible] نفوس   سلسلة قصصية نفسية   يصدرها : عبد المنعم الزيادي

تقديم الدكتور مصطفى فهمي
أستاذ [illegible] النفسية بجامعة [illegible]

خبايا النفوس

سلسلة قصصية نفسية

الناشر

دار الثقافة الإنسانية للنشر

الطبعة الأولى ـ نوفمبر ١٩٥٨

وداعًا.. للمرض النفسي

تأليف

جون نايت

تعريب

صالح الغمراوى

تقديم

الدكتور مصطفى فهمى

أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية

جامعة عين شمس

تقـديم

بقلم الدكتور ـ مصطفى فهمى

استاذ الصحة النفسية بكلية التربية ، جامعة عين شمس
والمشرف على العيادة النفسية بها

بين يدى القارىء الان كتاب فريد فى نوعه تناول كل ما يهم القراء معرفته عن التحليل النفسى ، كأحد الأساليب المتبعة فى علاج الأمراض النفسية .

غير ان وجه الجدة فى هذا الكتاب انه لم يعرض لنا نظريات علمية وضعها أحد الكتاب المشتغلين بالعلاج النفسى امكن له استخلاصها نتيجة مشاهداته وابحاثه التى قام بها على المرضى ، وانما الجديد فى الامر ان مؤلف الكتاب والمريض النفسى كانا شخصا واحدا ، مما يجعل كل ما ورد به من معلومات وخبرات وافكار انما يعبر عن واقع نفسى ، واحاسيس حقيقية ، ومشاعر صادقة ، لما يعانى منه المريض النفسى ، ولما يعتمل فى داخله من صراع ، ولما يدور فى ذهنه من أفكار .

كما أنه يكشف عن الدوافع النفسية التى توجه سلوكنا ؛ وعما يصيب هذه الدوافع من كبت أو عدم اشباع ، وما يترتب على ذلك من آثار مرضية . وهو فى الوقت نفسه يتحدث عن ميولنا ورغباتنا الخفية التى نعمل جاهدين على عدم اظهارها لمنافاتها للضمير الخلقى للفرد أو الجماعة . وكيف ان هذه الميول والرغبات تلح راغبة فى

التحقيق ، فتعبر عن نفسها فى صورة احلام ، او فلتات لسان ، وقد تكون مشبعة بالطاقة النفسية فتحدث الأمرض النفسية .

ولقد نقل الينا المريض فى هذا الكتاب ، بأسلوب قصصى ، كل ما سجله عن نفسه طوال مدة مرضه بصراحة تامة ، وبصدق وأمانة

والمريض فى هذه القصة ــ وهو مهندس كيميائى ــ كان مريضا بقرحة فى المعدة ــ وهى احد الأمراض التى ترجع اسبابها الى اضطراب نفسى . ولقد سردنا كل ما كان يدور بينه وبين المعالج النفسى بالتفصيل فى جميع الجلسات العلاجية طوال مدة العلاج الذى استمر عامين .

كما أنه نقل الينا صورة واقعية عن العيادة النفسية التى عولج بها ، وما بها من اثاث مريح بسيط فى مظهره ، وعن اثر المقابلة الأولى مع المعالج فى نفسه ــ وما دار من حديث فى هذه المقابلة وما تلاها من مقابلات .

ثم تحدث عن المشاعر التى كان يحس بها نحو المعالج ، وكيف انها كانت فى البداية مشاعر كراهية ، ثم تحولت الى مشاعر حب شديد ، وتعلق وجدانى ورغبة فى الاعتماد عليه كل الاعتماد ، كما تحدث عن اسباب تولد هذه المشاعر بالتفصيل .

واخذ المريض يتحدث الينا عن مراحل نموه المختلفة منذ طفولته حتى بلغ سن السادسة والثلاثين عندما مرض بقرحة المعدة ، ولقد تناول بالذكر كل ما صادفه فى حياته من أحداث هامة ، وهو ما عبر عنه بالتداعى المطلق .

ثم عرج على العلاقات الأسرية التى تربطه بجميع افراد اسرته . وذكر لنا ما كان يعلق به المحلل النفسى على جميع ذكرياته .

وتحدث باسهاب عن تاريخه الدراسى ، وعن القلق الذى كان يعيش فيه للوصول الى التفوق الدراسى على زملائه ليصل الى مركز مرموق فى المجتمع .

ثم أخذ يعرض الوان الاحباط التى تعرض لها طوال سنى حياته واثر هذه الاحباطات فى احداث المرض النفسى .

ولقد كان المريض بارعا فى التعبير عن الانفعالات التى كانت تدور فى نفسه كلما قرب من التعبير عن احدى الذكريات المؤلمة التى كانت تغيب فى طيات النفس اللاشعورية ، وكيف انه كان يتصبب عرقا، ويتلعثم ، ثم ينطق بصعوبة بسبب وجود «مقاومة» شديدة ضد الافصاح عن هذه الرغبات اللااجتماعية ، والذكريات المؤلمة .

ولم يغب عن صاحب القصة ان يذكر لنا معلومات هى فى الواقع اركان هامة فى العلاج ، وفى كل انواع العلاج مثل مقابلة المعالج له بحرارة وترحاب ، واظهار الرغبة الشديدة فى مساعدته . كما أوضح ان المعالج لم يدفعه الى ذكر أى معلومات لا يرغب فى ذكرها ، بل كان يترك له حرية التعبير التلقائى نتيجة شعوره بالثقة فى المعالج والاطمئنان اليه .

وتحدث عن مدة الجلسة العلاجية وكيف أنها لم تكن طويلة مملة، ولم تكن قصيرة لدرجة تحول دون اتاحة الفرصة له للذكر ما يرغب فى الافضاء به ــ كما ذكر لنا التغير النفسى الذى كان يطرأ عليه من جلسة الى اخرى .

وكان من بين ماذكره المريض تقبل المعالج لمشاعر الكراهية التى كان يبديها نحوه فى أول الأمر وهو ما يسمى « بالتحويل السلبى »، وتفسير المعالج لكل الالفاظ النابية التى كان يذكرها المريض، والتى كانت تدور فى خلوة حتى أحال الكراهية الى تعلق شديد ، وهو ما يسمى « بالتحويل الايجابى » .

ومن بين المسائل التى عرضت له فى ذكرياته ، والتى عبر عنها فى الجلسات العلاجية ، حياته الجنسية فى طفولته ، ومراهقته ، وحياته الجامعية .

وقد كان دقيقا فى شرح تفاصيل كل مرحلة من حيث دوافعه الجنسية ، وعلاقاته العاطفية ، والآثار التى كانت تترتب على اتصاله بالساقطات ، ومشاعر التقزز التى كانت تنتابه فى اغلب الاحوال .

كما انه استطاع ان يذكر لنا ــ عن طريق التحليل النفسى ــ كثيرا عن الجنس فى الطفولة ، وما هى فكرة الطفل عن الولادة،

والتناسل والعلاقات الجنسية .

ولقد كان ما كتبه عن الدوافع الجنسية فى المراهقة يعتبر شيئا جديدا فى تحليل مشاعر المراهق الحقيقية ، ودوافعه ورغباته ، وما يعانيه من كبت فى بعض الأحيان ، واثر كل هذا فى حياته .

ولقد كان أمينا فى معلوماته عندما تحدث عن تجاربه فى ممارسة الحياة الجنسية بالجامعة ، وذكر انها كانت عدائية مليئة بوسائل الاخضاع والقهر ، ولم ينجم عنها أى سرور أو متعة أو اكتفاء ، بحيث جعلت منه المخالطة الجنسية انسانا متوتر الأعصاب يشعر بالذنب .

ومما ذكره فى هذه القصة المشاعر الأنثوية التى تبدو لدى بعض الأفراد نتيجة تعلقهم الشديد بامهاتهم ، وكيف انهم يشعرون بالقلق الشديد تجاه هذه المشاعر مما يجعلهم يلجأون الى افعال تعويضية يثبتون بها لانفسهم أنهم رجال حقا . وهو فى كل هذا يذكر نص الحديث الذى يدور بينه وبين المعالج وما يعلق به الأخير فى جميع المواقف .

ثم أخذ يسرد لنا الأحلام التى قصها فى الجلسات العلاجية ، وتحدث عن الحلم الظاهر ، وأصله الكامن فى طيات اللاشعور . وتحدث عن الحيل اللاشعورية مثل الابدال ، والنقل ، وغيرهما ـ وهو بطبيعة الحال لم يصل الى كل هذا نتيجة التحليل النفسى الذى كا نيقوم به المعالج له ، مما يجعله يقف على الرمزية فى الاحلام ، وعلى كيفية تفسير احلامه المزعجة التى كانت تؤرق نومه .

واخيرا انتهى المريض فى حديثه الى مظاهر التغير التدريجى الذى طرا على حياته النفسية والجسمية ، وكيف ان مخاوفه وقلقه اخذا يختفيا رويدا نتيجة استبصاره بنفسه ، ومما يدور فيها من صراع .

ولقد اختفت نتيجة هذا العلاج النفسى كل الآلام التى كان يشعر بها من قرحة المعدة ، ولم تعد تعاوده على الاطلاق .

وكان لا بد ان يوضح للقراء كيف أنهى العلاج ، فذكر ما كان يلجأ

اليه المعالج فى نهاية الجلسات لكى يعوده على البعد عنه مددا تطول تدريجيا كلما قربت آخر جلسة علاجية ، حتى يتعود الاعتماد على النفس ليصل به الى مرحلة الفطام النفسى ـ حتى أمكن له فى نهاية الأمر أن يواجه الحياة بمفرده ، صحيحا من الناحيتين الجسمية والنفسية .

من كل هذا يتبين مدى الفائدة الكبيرة التى ستعود على المكتبة العربية فى علم النفس بضم هذا الكتاب اليها .

وعلى قراء علم النفس باقتنائه والاطلاع عليه .

دكتور مصطفى فهمى

وداعاً .. للمرض النفسي

« ثمة خرافة من اوسع الخرافات انتشارا ، تلك ان لكل انسان صفاته الخاصة ، المحددة المعالم.. فهو اما ان يكون حليما شفوقا او قاسيا غليظ القلب . واما ان يكون حكيما عاقلا او احمق بليدا . واما ان يكون نشطا ذا همة أو كسولا فاتر الهمة . واما أن يكون واعيا حصيفا ، أو خاملا عبيطا .. « ولكن الواقع ان الناس ليسوا كذلك .. فالفرد كالنهر يجرى فيه الماء متدفقا كما فى غيره من الانهار .. ولكن لكل نهر صفاته واشكاله ، ومميزاته فهو ضيق هنا وعريض هناك .. تياره أسرع هنا وابطأ هناك .. وماؤه الآن صافيا ، وكان قبل قليل معتكرا .. والى قبل لحظات كان باردا منعشا بينماتحولت برودته الآن الى دفء ..

« وهذه هى الحال مع الناس .. فكل فرد يحمل فى أعماق نفسه نواة لكل صفة من الصفات الانسانية ، واحيانا تكشف احدى هذه الصفات عن وجودها . وفى احيان أخرى تظهر غيرها ، فيبدو المرء كما لو كان شخصا آخر .. فى حين أنه هو نفسه لم يتغير » .

ليف تولستوى

الفصل الأول

فوق المضجع

« عند ما نتذكر فى صمت ، فاننا نبحث عن
اللغـــة الهامـــة التى نســـيناها »

توماس ولفي

فى يوم من أيام اكتوبر المشرقة البهيجة ، لبضع سنوات خلت ، كنت ارقد فى استرخاء فوق المضجع الجلدى المريح فى عيادة المحلل النفسى الدكتور « ماكسويل » ، وتفكيرى يجوب الآفاق فى انتظار الجحيم القادم بعد ذاك ...

كانت التعليمات التى صدرت الى من المحلل مختصرة نسبيا ، فقد قال لى :

ـ اذكر بصوت عال كل شيء يخطر ببالك فور ظهوره ، مهما يظهر لك أنه غير مناسب أو تافه .

وقد اكد دكتور ماكسويل ان الدقة والصراحة التامة فى كل ما أقوله هما القاعدة الاولى فى عملية التحليل النفسى .

وقد هزنى بعنف اننى احسست أن هناك تشابها بين ما يجول فى أعماقى ، وبين ما كنت اشاهده مصورا فوق صفحات الجرائد الصفراء والمجلات الرخيصة من قصص جنسية وجرائم قتل ، واغتصاب نساء . وحينئذ أدركت اننى كنت أفكر بينى وبين نفسى فقط ، ولم اذكر حكمة واحدة من تفكيرى هذا للمحلل . وهذايعنى

اننى خرقت القاعدة الأولى التى تتطلب منى « ان اذكر كل شيء بصوت مرتفع .. » وأن اذكره بدقة تامة وبالتفصيل . كما اننى خرقت القاعدة الثانية التى تصر على الصراحة والوصف الحر .

وعدت اسائل نفسى فى همس : « هل من اجل هذا الاجراء الغريب ادفع خمسة عشر ريالا اجرا عن الجلسة الواحدة التى مداها ساعة ؟ » كنت غير مستريحا . وبرهان ذلك ماكان يغمرنى من عرق يتفصد من جبينى ، وعنقى ، وراحتى فى غزارة !.. وقد ظننت اننى سوف القى المصير الذى انتهى اليه امر السيدة الوقور الطيبة التى كانت تضرب على سبيل المزاح عن التحليل النفسى . وقد ظلت ثلاثة شهور كاملة تعالج نفسيا ، حضرت فيها ستين جلسة تحليلية دون أن يظفر منها الطبيب بكلمة ! وكانت تدفع الأجر الكبير دون تذمر ، وتنصرف لتعود مرة اخرى ، ويعود معها الصمت الرهيب وقد انتهى الأمر بالمحلل الى خرق القاعدة التى تعلمها من استاذه « فرويد » وهى « لاترغم مريضك أبدا على الكلام » ، فقال لها فى صوت كله رقة : « دعينى أساعدك .. فى استخراج الكلمة التى ظلت تتصارع فى اعماق نفسك طيلة شهور ثلاثة وانت تحت العلاج »

وما لبثت السيدة ان أفرجت عن الكلمة !.. فقالت فى صعوبة بالغة وهى تلهث : « بانكيك » (الدهان الذى تطلى به بشرة السيدات)

ولم يكن الطبيب النفسى المعالج يتوقع ابدا ان تكون هذه هى الكلمة التى تعانى منها السيدة هذا العناء النفسانى الشديد !

وكنت أنا لم اتحدث بكلمة واحدة حتى هذه اللحظة ..

وعادت التعليمات التى صدرت الى ضمن أوامر الطبيب « اذا ما اردت أن تتحدث عن احلامك .. فسارع الى اخبارى بها ، وانت مخير بين ان تقوم بتدوين هذه الاحلام على الورق ، أو الاحتفاظ بها فى ذاكرتك حتى تعرضها على .. »

ولكنى ، لسوء الحظ ، لم اتمكن من تذكر اى حلم سابق مترابط الحلقات .. مع أننى رأيت حلما أقرب الى الكابوس - يدور حول الغرق ولكننى لم استطع تذكره . وما ان وصلت بتفكيرى

الى هذه النقطة انفجرت صائحا :

ـ دكتور ماكسويل .. اننى اعيش فى جحيم من الشقاء .. فى اللحظة التى حسبت فيها اننى ابعث الى حالة من الرجاء بعد اليأس ، بدأت اشعر بأن رواسب الماضى تطبق على عنقى صارخة كمخلوق ثائر مجنون !. ليست لدى القدرة الكافية للافراج عن روعى بكلمة افضى بها اليك !. كما اننى ــ وانا كاره لأن اصارحك ــ غير مطمئن اليك .. نفسى ثائرة على احساسى نحوك بالريبة ، ونحو هذا العلاج النفسى الذى تحاول ان تخضعنى لسيطرته !.. ومن الخير أن نعالج الحديث معا .. ومناقشة حالتى النفسية كرجل الرجل ، وليس كمريض لطبيب .. فربما اتى هذا بنتيجة طيبة .. بدلا من الاستمرار فيما هو ــ فى رأيى ــ نوع من الحماقة ، وقصر النظر ، ولا جدوى منه ابدا ..

فتكلم دكتور « ماكسويل » من مكانه خلفى ، حيث كان يجلس بعيدا عن دائرة بصرى .. وكانت لهجته فى منتهى العذوبة والرقة والهدوء الذى يبعث على الطمأنينة .. قال :

ـ هذا قول صريح جميل .. لقد مر بك من الوقت ربع الساعة .. ولكنى وأنا ارقبك فى صمت من وراء المضجع قد استطعت ــ دون أن تدرى ــ ان اصل بك الى نقطة البداية ، او نقطة الوثوب .. ومنها سيكون فى مقدورك ان تتبين همومك ومشاكلك .. هيا أطلعنى على مايصطرع فى أعماق نفسك من خواطر تقلق بالك وتعكر صفاء حياتك .. ان هذا على درجة كبيرة من الاهمية .. ويسرنى أن تكون هذه هى البداية ..

وما حدث بينى وبين المحلل النفسى فى بقية هذه الجلسة ، وفى الجلسات الثلاثمائة التالية لها ــ سأذكره فى الصفحات التالية من هذا الكتاب ، وهنا يجدر بى أن اذكر ان هذه العملية العجيبة ، عملية العلاج ، قد ساعدتنى الى حد بعيد على شفاء قرحتى المعدية المميتة ، عن طريق تخفيفها لحدة توتراتى العصبية . كما قد ازال العلاج أيضا كثيرا من مشاكلى ، ومتاعبى الشخصية التى عطلت حياتى

الانفعالية سنين عديدة .

وقبل ان انتقل الى مرحلة الحوادث التى وقعت فعلا خلال فترة علاجى النفسى ، دعنى أصارحك بالسبب او الاسباب التى دعت الى هذا العلاج .. دعنى أخبرك من انا .. وما اعترض سبيلى من حوادث كانت سابقة لاول « رقدة » لى على مضجع .. المحلل النفسى .

* * *

الفصل الثانى

لماذا لجأت إلى التحليل النفسى

«اننى أجتاز وادى شبح الموت»
المزمور الثالث والعشرون

انا الآن فى العام السادس بعد الثلاثين من عمرى . وانا كيمائى مهتم بأبحاث الكيمياء الصناعية وحين بدات فى تجربة التحليل النفسى ، كنت قد مررت بحقبة مازالت عالقة بذاكرتى ــ حافلة بآلامى النفسية والجسمانية .. وكان السبب الاول لعرض نفسى على محلل نفسى هو حدوث نزيف مفاجىء سببته قرحة فى معدتى كنت قد اصبت بها وانا فى الخامسة والعشرين من عمرى نتيجة الاجهاد المتواصل الذى كنت ابذله فى اسراف لاستذكار دروسى كى احصل على درجتى العلمية .. وقد تحقق هدفى فى الفوز بتفوق كبير، ونلت مرتبة الشرف فى علم الكيمياء ...

ولكن آلام القرحة كانت لى بالمرصاد ، وظلت تعاودنى ، فى هجوم عنيف ، كلما تناولت طعاما .. فانقلبت حياتى جحيما واخذت اعانى من مرارة الآلام الجسدية ، ومن توتر اعصابى ..

كانت الآلام الحادة تكاد تمزق الجزء العلوى من البطن .. وتشتد احيانا فتؤرقنى ، فكان لابد لى من استشارة طبيب اخصائى فى امراض المعدة ..

وزادت حالتى النفسية سوءا بسبب هذه القرحة اللعينة حتى

اننى رفضت عرضا مغريا من احدى الشركات الكيمائية ، وطلبت منى ان اشغل وظيفة مدير المعامل بها .. ولكن هيهات وأنا فريسة حالة جسمية قاسية ، وحالة نفسية مدمرة !..

وبدات أنفذ ماكنت اعترض عليه ، وهو عرض نفسى على طبيب باطنى كفء .. وكان لى صديق مازال يدرس فى كلية الطب ، افضيت اليه بمتاعبى ، فبادر بنصحى أن أعرض نفسى على الاخصائى العالمى دكتور « جولد شميدث » وهو حجة فى علاج امراض المعدة .. وقدعملت بمشورته ، وقصدت عيادته على الفور.

كان رجلا مهذبا ، يزين راسه تاج مهيب من الشعر الفضى .. وقام بالكشف الدقيق الشامل على .. وكان يبدو التجهم فى معالم وجهه وهو يؤدى وظيفته فى دقة وأمانة مما اشعرنى بخطورة حالتى .. وبعد ان انتهى من فحصى ، ومن الاطلاع على صور الاشعة التى التقطها فيما مضى لمعدتى ، التفت الى وصارحنى قائلا :

ــ انك مصاب بقرحة عند « فم » المعدة ، وساصف لك دواء ناجحا يشفيك منها .. وعليك ان تتناول الطعام الذى أقرره لك فى نظام رتيب وفق ما أدونه فى تذكرة العلاج .. وعليك ان تعطى جسمك الراحة الكافية . وليس من الضرورى اجراء عملية جراحية فى الوقت الحاضر ..

واتفقت معه على البدء فى العلاج خلال اجازة اقضيها فى المنزل .. أما اذا استمر المرض معى دون تحسن ، فمن الضرورى ان ادخل أحد المستشفيات للعلاج ، اذ هناك العناية متوفرة للمرضى الذين فى مثل حالتى ..

وبعد ان قضيت ستة أسابيع تحت العلاج فى البيت ، اتناول الدواء الذى وصفه ، واطعم الغذاء الذى حدده سافرت الى نيويورك حيث يقيم هو ، ليرى ما وصل اليه علاجى ..

وبعد بضعة اسابيع غير نظام تغذيتى ، فأضاف الى قائمة طعامى الخفيف من اللبن ومشتقاته ، كمية بسيطة من البيض المسلوق والثريد .. ثم صرح لى اخيرا ببعض الاغذية الخفيفة ...

وقد اخذت أعراض المرض ومتاعبه تتضاءل نتيجة لمواظبتى على العلاج والطعام المقرر ، الا أنها لم تفارقنى نهائيا .. اذ كثيرا ماكانت تعاودنى آلام القرحة .. كما اننى اشعر فى أوقات عديدة كما لو كانت فى جوفى نيران متأججة تلهب مشاعرى ، وتسبب توتر اعصابى ..

وذات يوم سبت ، حدث لى نزيف حاد عقب عمل مرهق قمت به .. بدأ بغثيان شديد ، وتقيأت كل مافى معدتى فكان القيء سائلا فى لون الدم يمتزج بقطع متجمدة تثير الرعب فى النفس ، وتنبعث منها رائحة الموت !..

فلما رأتنى صاحبة المسكن على هذه الحال المزعجة أسرعت الى التليفون واتصلت بالدكتور « جولد شميدت » والقت اليه بنبأ سوء حالتى !.. وسرعان ما وصلت عربة المستشفى ونقلتنى اليه .. وهناك اسعفت بسرعة ، وما لبثت بعد الاسعاف أن رحت فى سبات عميق ..

وقد عرفت فيما بعد أن النزيف كان شديدا بالغ الخطورة افقدنى من الدم كمية كبيرة تبلغ « ربع الجالون » !.. وبعد اسابيع ثلاثة قضيتها فى المستشفى ، أمر الطبيب المعالج بأن اغادره لاعود الى عملى ، وقد زال الخطر عنى ، وعوفيت من أنيميا الدم .. ونصحنى وهو يودعنى بألا اجازف بارهاق نفسى بالعمل المضنى ..

وكان دكتور « شميدت » دائم التردد على فى المستشفى وكان يشترك فى مباشرة علاجى .. وكان القلق الشديد يبدو ظاهرا على ملامحه .. لم يكن مطمئنا للعوارض التى اتسمت بها قرحة معدتى اللعينة !..

وقد اهتم أيضا بما كان يهيمن على نفسيتى من توتر عصبى ، واضطرابات انفعالية ..

ولما أخذت القوة تدب فى جسدى بخطى وئيدة بعد السماح لى بالتغذية الكاملة ، واخذ المقويات اللازمة ، طلب منى الطبيب ان احاول استرجاع جميع الحوادث المزعجة المقلقة التى مرت بى

خلال الشهور المنصرمة بقدر استطاعتى .. واردف طلبه بقوله مازحا:

ــ تعال الى عيادتى .. وهناك سنتحدث عما ينبغى ان نقوم به من اجل مرضك .. واحسب ان علينا ان نقوم ببعض الابحاث البوليسية الخفية التى تفى بالغرض ، أو تساعدنا فى ايجاد الوسائل!.

وحدد لى الوقت الذى القاه فيه بعد بضعة اسابيع .. ومن ثم اخذت ازاول عملى كالمعتاد ..

وفى الموعد المحدد التقينا فى عيادته ، وجلست ازاءه فى هدوء وتحفظ كما يجلس الطالب امام استاذه .. واخذ يلقى دعاباته اللطيفة التى تبث المرح فى النفوس ، وقد استطاع بها ان يفرض على جوا من السرور انطلقت فيه ضحكاتى تدوى فى ارجاء القاعة .. وصارحنى بأنه سيقوم بتمثيل شخصية « شرلوك هولمز » لو قدمت له « موضوعا » يستطيع أن يبنى عليه استنتاجاته وتجاربه .. وقال لى أيضا . أن رئيس مجلس ادارة الشركة التى اعمل بها قد اتصل به تليفونيا عندما كنت فى المستشفى وابدى استعداده لتقديم كل مساعدة .. ثم أضاف الى ذلك قوله :

ــ لقد قال انك اخصائى بارع فى حقل دراستك العلمية ...

ان هذه الملاحظة التى ابداها رئيس مجلس ادارة الشركة مدحا فى قدرتى ، قد مست اخطر عقدى النفسية المكبوتة ؛ وانطلق الشعور المكبوت فى صراخ مدو قلت فيه :

ــ قال ذلك حقا ؟ !.. احقا قال ذلك ابن الذئبة القذرة !. الجرو الاجرب ؟.. انه الآن يعترف بأننى كائن حى أعيش فى هذا العالم !. ان فى هذا اختلافا كبيرا .. عظيما .. عما كان يقوله عنى منذ شهور ثلاثة عندما رقوا « ماكلينان » وتخطونى !. مكنوه من ان يثب فوق راسى ويشغل ما كنت استحق من وظيفة اعلى !.. الوظيفة التى استحقها انا !.. ولم يقل زعيمهم هذا القول عن قدرتى وكفاءتى الا عندما تبين اننى فى طريقى الى القبر !.. انهم السبب فى هذه الحالة النفسية التى تسيطر على كيانى !..

فابتسم دكتور « شميدت » واخذ يهتز كما لو كان يسمع

نغمات شجية وانفجرت أسارير وجهه اذ ادرك اننى الان فى طريقى الى الشفاء بعد هذا الانفجار الذى استنفد الكثير من غازات التوتر الخانقة التى كانت تملك على مشاعرى ، وتخنق كل احساس طيب فى اعماق نفسى !.. ومالبث ان قال فى لهجة جدية :

ـ ارجو الا يهمك الامر كثيرا .. أكثر مما يجب .. حتى لايؤثر هذا فى تماثلك للشفاء ..

ثم مالبث ان أفهمنى لماذا هيأ لى هذه المقابلة الطويلة فى عيادته بأن قال :

ـ اصغ الى .. لقد أمكننى أن افهم تاريخ حياتك فهما تاما خلال الخمس سنوات الماضية واتتبع سير مرضك .. ان قرحة المعدة التى تعانى منها كانت تتقلب من حالة الى حالة .. من حالة شفاء الى حالة مرض .. كتقلبات سوق المال .. ولكنها الآن قد مالت الى ناحية السوء ، وهى تزداد يوما عن يوم الدرجة انها اصبحت تهدد حياتك .. من الممكن ان نقوم بعملية جراحية فى معدتك ، ولكن ليس من المضمون ان ينتج عنها شفاء تام .. وعملية جراحية فى المعدة من العمليات الخطرة التى لايضمن نجاحها كثيرا ...

ثم اطرق قليلا . ونزع نظارته ، وظل يفكر ، واخيرا رفع راسه واخذ ينظر الى بضع لحظات ثم قال :

ـ ان نصيحتى لك ان تجرى عملية جراحية فى اعصابك !.. وفى نفس الوقت داوم على علاج قرحة المعدة ...

فالفيت نفسى انظر اليه مدهوشا . فبينما كنت اتوقع انه قد انتهى الى ترتيب اجراء عملية فى المعدة ، اذا به يشير فى صراحة بأن تجرى هذه العملية فى الاعصاب !.. كان هذا مثيرا لعجبى الشديد !.. فسألته :

ـ ماالذى يدور فى راسك يادكتور ؟.. ماذا تعنى بقولك هذا؟!..

فانتقل الى لب الموضوع مباشرة وقال :

ـ أريد منك أن تستشير محللا نفسيا !..

فصحت :

ـ ياالجحيم يادكتور شميدت !.. ماذا تعنى بهذا القول ؟..
ان صحتى الجسدية وحالتى النفسية على مايرام .. كذلك طبيعتى الجنسية الى عهد قريب لاتشوبها شائبة .. فما معنى هذا التحليل النفسي الذى تشير به ؟.. ماهى الفائدة التى تتوقعها لى ؟.. انا فى غير حاجة اليه ابدا ..

فاخذ يلقى على محاضرة طويلة عن التحليل النفسى ، وقد كان موفقا الى حد بعيد كما لو كان من علماء التحليل النفسانى . وقد عرفت اخيرا انه قد حلل على يدى المحلل النفسى الشهير دكتور « فرويد » فى فينا .

ثم قال انه اتفق مع المحلل النفسانى « دكتور مكسويل » للبدء فى علاجى النفسى الذى لابد منه ...

ولما انتهى من مهمة اقناعى بالنزول على رايه ، حدد معى مقابلة بعد اسبوع ثم قال :

ـ ان حالتك تتطلب راحة طويلة تستجم فيها قبل التحليل النفسى .. وقبل أن نفترق الى حين ، ارجو الا تحرمنى التمتع بفترة اخرى من الاهتمام بأمر مرضك .. ربما لاتجد بأسا يابنى فى الصفح عن الحاحى او اقحام نفسى فى أمر من شئونك الخاصة .. ولكننى رجل مسن فى عمر ابيك ، ولى ولد فى مثل سنك ، ومهنته هى نفس مهنتك ايضا .. وهو يعمل الآن فى انجلترا ... ان الاحداث الجسام التى شملت اوروبا قد عملت على تشتيت اسرتى تماما ..

فعبرت له عن عميق شكرى على اهتمامه بأمرى ، وعلى اسدائه النصائح الغالية .. ودونت موعد لقائنا القادم فى دفتر مذكراتى ، ثم هززت يده فى مصافحة صادقة مخلصة ..

* * *

الفصل الثالث

فرار

« الخوف وليد الجهل »
هرمان ملفيل

ان اليوم السابق لليوم المحدد لمقابلة المحلل النفسى يكون عادة يوما مليئا بالسخف ، تبعا للنظرة التى تنظر بها اليه .. ولكن توصية دكتور « جولد شميدت » لايمكن اغفالها بسهولة ، رغم ما اثارته كلمة « التحليل النفسى » من أفكار غريبة فى ذهنى .. لقد كان معناها عندى على الدوام هو « الجنس » ، وقد تبين لى فيما بعد اننى كنت مخطئا ...

لقد كانت وجهة نظر « دكتور شميدت » عن التحليل النفسى مخالفة لوجهة نظرى على طول الخط .. وكان على أن احترم رأيه بلا تردد ..

لم يسبق أن اثر اي طبيب فى نفسى هذا التأثير الذى تغلغل فى اعماق نفسى مثلما اثر هذا الطبيب النمساوى فى نفسى .. لقدكان معينا لاينضب ماؤه من العلوم الطبية .. وحتى علم الكيمياء كان حاصلا منه على قسط وافر مما ادهشنى واثار اعجابى ..

وحدث قبل ان يتطرق معى الى النقاش فى التحليل النفسى بوقت قصير ، أن اشترك معى فى نقاش عن الكيمياء ، حتى وصل فى نقاشه الى مياه عميقة من هذا العلم اثارت دهشتى !. لقد أوضح لى فى تفسير بالغ الروعة ، وهو يتكلم عن قرحة المعدة ومسبباتها ، كيفية علاج القرحة عن طريق خلق حالة « تعادل » فى أحماض المعدة ، حتى يمكن أن تنشأ موازنة فى الخصائص القلوية المنتشرة فى كل خلايا الجسم !. وكان شرحه هذا مذهلا خلابا ذا تأثير بالغ ...

ولكن برغم اعجابي بالرجل العالم النابغة ، وبرغم حبي له ، كنت غير مطمئن لفكرة « التحليل النفسي » .. كيف يمكن الربط بين « التحليل » او « الجنس » ـ كماكان اعتقادي الاول ـ وبين « قرحة المعدة » !.. وبالطبع لم تشبع محاضرة دكتور « جولد شميدت » القصيرة عن التحليل النفسي نهمي .. ولم تكن فيها اجابة شاملة مقنعة عن اسئلتي .. اذن فعلي انابحث انا بنفسي .. هذا مافكرت فيه .. سأطلع على كتب « فرويد » وعلى غيرها حتى أصل الى صميم هذا الموضوع بطريقة علمية

وكان مشروع هذه الدراسة مشوقا ومثيرا ولذا ،جدت نفسي واقفا أمام « رف » تملؤه كتب « فرويد » وابحاثه العلمية في احدى قاعات مكتبة عامة ، أبحث عن كتاب تهمني تلاوة مافيه .. وعثرت على الكتاب .. كان مرجعا في التحليل النفسي ..

واخترت ركنا من القاعة ، وجلست أقرأ الكتاب في امعانواهتمام

وجدت فيه الشيء الكثير عن « الجنس » ، ولكن كان فيه تناقضا .. او على الاقل .. اختلافا ظاهرا عما كنت اعتقده عن الجنس . فالحياة الجنسية في نظري لم تكن سوى اشباع جسماني للغريزة الجنسية وحتى آرائي عن الحب والجنس في الحياة الزوجية كانت غامضة ومختلطة ، مع اني مدرك اهمية فصلالعلاقاتالاباحية عن الحياة الجنسية الزوجية .

وقد أدهشني أن اجد أن « فرويد » قد أطلق على الغريزة الجنسية لفظ « ليبدو » Libido . وقد وصفها بأنها كالتيار الكهربائي الذى أضاء حياة الفرد الداخلية العميقة كلها ، ومنوقت الى آخر يصل الى درجة عالية من الوحدات الكهربائية (فولت) مما يستلزم حدوث تفريغ آلي لها . وكما أن السيارة لاتستطيع السير من غير المولد الكهربائي (الدينامو) والبطارية لكي تمدها بالتيار الكهربائي ، فان النفس الانسانية لاتسير بسلام اذا حرمت من قوتها الجنسية الدافعة الاضطرارية . ورأيي عن الدافع الجنسي كان يختلف كثيرا عن وصف الدكتور فرويد العلمي لفظ « ليبدو »

وعلى عكس ماذكرت للدكتور « جولد شميدت » فان حياتى الجنسية لم تكن مرضية تماما . فقد كانت مملة ، روتينية ، لاطعم لها .

لقد اذعنت لراى فرويد عن فكرة « الليبدو » . فقد تجاوبت مع نفسى باعتبارى رجل علم لان فرويد عبر عنها بلغة الطاقة و « الفولت » و « الامبير » والمقاومة ، ولاسيما وقد تدربت ايضا على الاعمال الكهربائية فى المعامل فى ليالى السبت من كل اسبوع

وقد لفت بصرى عنوان آخر هو « القيمة الطبية للتحليل النفسى » وكان ما أتوق الى معرفته هو كيف يتحقق شفاء ناجع لقرحة المعدة دون عملية جراحية .. وهاهو كتاب أحسب ان فيه مايشفى غليلى .. وكان مؤلفه دكتور « فرانز الكسندر » مدير معهد التحليل النفسى بشيكاغو .. ولعظيم دهشتى وجدت أنه ، بالاشتراك مع زملائه قد وضعوا بحثا طريفا قيما عن مرض « قرحة المعدة » وعلاقته الوثيقة بالاضطرابات الانفعالية .

ولم أكن اتوقع أن يذكر « دكتور الكسندر » مميزات النمط الانفعالى لشخصية المريض بالقرحة المعدية وهى ــ كما وصفها ــ :

« حاجة طفلية شديدة الى الاعتماد على الآخرين ، والرغبة فى العودة الى حياة الرضيع الخالية من المسئولية حيث يعتنى الوالدان بالطفل ، ولا نرى هذا الاتجاه السلبى التواكلى فى السلوك المكشوف ، بل على العكس من ذلك نجد ظاهريا لدى معظم هؤلاء المرضى طموحا عنيفا ، ونشاطا زائدا عن الحد . وهذه العلاقة الوثيقة بين هذه الميول السلبية وبين وظيفة المعدة ليست أمراً غريبا ، اذ أن أول تجربة للطفل فى اشباع ميوله السلبية وحاجته الى الآخرين تحدث له مع تغذيته ورضاعته . وعلى ذلك فان الرغبة فى أن يطعمه الآخرون ، قد تصبح منبهاً أو دافعا مزيفا يؤثر على وظيفة المعدة »

ولكن هذا الكلام لم يشبع رغبتى فى المعرفة . وشعرت بتعب متزايد وتوتر بخصوص مشكلة الانفعال والجسم . وقد دهشت عندما عرفت اننى قرات ثلاث ساعات كاملة ، واستغرقت فى القراءة

حتى أعلن عن انتهاء موعد المكتبة

وعدت الى حجرتى متأثرا بكل هذه الافكار الجديدة ، وفى نفس الوقت كنت أود لو أننى لم أعرف شيئا عن التحليل النفسى مطلقا !. فقد اثارنى بعنف تذكر موعدى مع المحلل النفسى ظهر يوم الاربعاء . والوقت الآن مساء الاحد .

وفجأة قفزت من فوق مقعدى واخذت اقلب صفحات دفتر مذكراتى لارى ما دونت فى صفحة يوم الثلاثاء القادم .. وقد وجدت من حسن الحظ ان هناك موعدا لمقابلة مدير الجمعية الكيماوية الامريكية بنيويورك بناء على طلبه ، اذ قدم الجمعية بيان واف من المصادر العلمية يشيد بما قمت به من تجارب وبحوث قيمة فى الحقل الكيمائى .. فلم يسعنى الا أن أصيح قائلا : « لايمكن ان تفوتنى هذه المقابلة بأى ثمن .. ان الدكتور « جولد شميدث » لايمكن أن يوافق على أن أدع هذه الفرصة تمر دون انتهازها ، وهى مرتبطة بعملى بوثاق هام جدا »

واخذت ، وانا مرتاح البال وفى أوج السرور ، اعد نفسى للرحلة .. ومر المساء سريعا بهيجا .. استخرجت تذاكر الطائرة .. ورتبت حجز مكان لى فى أحد فنادق نيويورك .. وكتبت رسالة طويلة الى « مرجريت » ، وهى صديقة خاصة عزيزة على فى نيويورك ..

وكان يوما الاثنين والثلاثاء من الايام التى أرهقنى فيهما زحام العمل فى المعمل ، اذ كان على أن أعد أعمالا تغطى عمل الاسبوع القادم جميعه واترك تنفيذها لمساعدى فى المعمل ، وهم كثيرون .. وكذا كتابة تقرير مفصل للمدير العام عن اعمال المعمل ، وعن البحوث التى قد تثار هناك فى نيويورك أثناء اجتماعى القادم فى الجمعية اذ من المرجح ان يناقشنى فيها رئيس الجمعية وانا أود أن أكون على استعداد كامل للنقاش ..

ولما ركبت الطائرة ، غمرنى مرة أخرى سرور بالغ .. ان الرحلة بالطائرة تسبب لى دائما هذا السرور الغامر .. لان فيها انعاشا للجسم ، واسترخاء كما لو كان المرء يقضى عطلة فوق رؤوس

الجبال !.

واخذت افكر : كم تكون رحلة هنيئة بديعة لو استمرت الطائرة منزلقة عبر سماء « مانهاتان » ، ثم تستمر عابرة المحيط الاطلسي الهائل ومن شاطئه الشرقي عبر أوروبا الغربية حتى عاصمة النمسا « فينا » .. بالجحيم !

الم أنس بعد « فرويد » والتحليل النفسي ؟!..

وفي نيويورك شغلني اجتماعي العلمي ، واستنفد كل وقتي طيلة يومين .. وفي صباح الجمعة سافرت الى فيلادلفيا للاتفاق على تجهيز معمل خاص بمعدات كاملة مع شركة لصنع مثل هـــذه المعدات ..

ومن هناك اتصلت بمرجريت تليفونيا ، وحددت لها ميعادا للعشاء عقب عودتي من فيلادلفيا مساء الجمعة ...

عادت الحياة تبتسم لي وانا في طريق عودتي الى نيويورك بالقطار .. اذ ان لقـــاء « مرجريت » عادة مايكون منبع سرور حقيقي وانا في مثل هذه الرحلات ، لانها كانت لي مصدر ترفيه لابد منه ..

كانت احدى « النوادر » من المدرسات الجميلات في المعاهد العليا .. سمراء في لون الحنطة ، تتدفق جاذبية وشبابا .. ومع هذه المظاهر الدالة على قوة المراس ، كانت تحتفظ في روحهـــا بأنوثة صارخة ورقة خلابة سابية .. وبجوار ذلك كانت تتجلى مهارتها وحذقها في مهنتها كمدرسة ذات ثقافة عالية .. كانت موضع حب ، بل عبادة ، من كل تلاميذها ، رغم فارق الخمسـة عشر عاما بينها وبينهم في السن .. حتى انها عندما تزوجت وأعلنت انها ستعيش في « مانهاتان » وضعوا شارة الحداد ، وربطوا اعناقهم بالاربطة السوداء ! بل تحايلوا حتى هبطوا براية المدرسة الى نصف « الساري » حدادا في يوم رحيلها !..

واقتربت ساعة الرحيل .. وتقدمت سائرا في الطريق الطويل الموصل الى رصيف الطائرة . واذا بي أشعر بألم مفاجيء .. اخذت انفاسي تخرج في صعوبة بالغة كما لو كانت « مقطوعة » .. وعجزت

عن السير .. وشعرت كما لو كان رعب غامر يقبض على كيانى ، واخذ العرق البارد يتفصد من كل مسام جسمى ، وتدافعت دقات قلبى فى تغط مسموع ، وعجبت كيف أن المارة لم يسمعوا هذه الدقات التى كانت تدوى فى مسامعى ! ..

ومن حسن الحظ كان على مقربة منى « موزع » مشروبات مرطبة ، فلم اتردد فى الجلوس على مقعد قريب ، ومددت يدى بقطعة نقود الى ثقب « الموزع » وكانت ترتعش كيد مدمن الخمر !. واخيرا حصلت على الشراب ، وعقب تناوله شعرت بتحسن .. ولبثت مرتاحا قرابة عشر دقائق خلتها اكثر من شهر كامل .. ولكن دقات قلبى ابطأت بعد ان كانت تركض ، وزال الالم ولكنى كنت لاازال مقطوع النفس ، متوجسا مرتعدا كما لو كنت اتوقع شيئا لا اتبينه !.

وبعد أن بذلت مجهودا عنيفا استطعت أن انهض وأنثر خطاى بطيئة وئيدة فى طريقى الى مرسى الطائرة ...

وشعرت براحة عندما جلست مرة ثانية ، متهالكا فوق مقعد الطائرة المريح !. لم اكن اخشى الطيران ابدا والا كنت عزوت اليه هذه الاعراض !.. انه شيء آخر غير الطيران لا ادركه ..

وسرعان ما انطلقت الطائرة فى الجو فى يسر ورخاء .. وسرعان ما اخذ هدوء نفسى يعود الى .. وشعرت باننى فى حالتى العادية !

ان ماحدث لى كان عبارة عن حلقات مسلسلة تروى قصة مليئة بالفزع لايدرك مدى ما فيها من رعب الا الذى يمر بمثلها ..

كان الرعب يصوب ضرباته نحوى من جميع الجهات .. كان يكتنفنى .. بل يلفنى فى أحضانه القاسية لفا ، ويعصرنى عصرا .. كان اشبه بشبح الموت يدب نحوى متسللا وئيد الخطى ، ثم يلج كيانى ويتمشى فيه جائلا .. ويأخذ بتلابيبى حتى ايكاد يخمد انفاسى ، ويقيد مشاعرى لدرجة الاختناق !

وقد تبادر الى ذهنى اننى ربما كنت أعانى من اعراض ذبحة صدرية أو أزمة قلبية من الازمات الخطرة .. لان الانزعاج الحاد

الذى يهاجم المرء يشبه الى حد بعيد الاحساسات الناشئة عن الخوف أو الاختناق الذى يصيب الغريق ويعانى منه الآلام الجسام قبل ان يموت بأسفكسيا الغرق !..

ولكن المرء فى هذه الحالات يعرف من اية ناحية يهاجمه الخصم وماكنه ذلك العدو وما نوعه .. وهذا من شأنه ـ على الاقل ـ ان يخفف وطأة ذلك الرعب ..

لقد كان انزعاجى فى الواقع من القوة والالم كما لو كان يصوب ضربات مميتة ساحقة ـ آليا ـ نحو مقاومتى للتحليل النفسى وعدم رغبتى فيه ...

فلما وصلت الى مسكنى اتصلت فورا تليفونيا بالدكتور « جولد شيمدت » وأخبرته بما حدث لى فى المطار فى نيويورك وانا عائد .. فأدهشنى بما اظهره نحوى من عطف .. وبما كان يبدو فى اسلوب كلامه من فهم كامل للحالة !. وقال : « ان مقاومة الرغبة فى التحليل النفسى ورفض فكرته والفرار منه تتخذ شكلا اكثر خطورة من المرض نفسه » .. ثم اقترح تحديد مقابلة اخرى مع دكتور « مكسويل » .. وبعد وقت قليل اتصل بى واخبرنى أن الميعاد قد تحدد فى منتصف السابعة من مساء يوم الاثنين التالى ، وطلب منى أن اتوخى الدقة فى الميعاد ، لان دكتور « مكسويل » رتب هذا الميعاد ، وهو « ساعة » فراغه الوحيدة فى راحة العشاء ، وهو الموعد الوحيد الخالى لاسبوعين قادمين ..

لقد تبين لى بوضوح ان دكتور مكسويل يود ان يعمل ... وفى سرعة !

وبعد أن تحدث الى جولدشميدت ، أطلق ضحكةمدوية أزعجتنى، ورفع صوته اكثر مما يجب ، فبدت لهجته الالمانية واضحة اكثر مما فى كلامه العادى وقال :

ـ أيها الشاب ، بعد عامين من الان ستكون قد انتهيت من علاجك النفسى على خير وجه .. ودعنى أخبرك كيف فررت انا شخصيا من « فرويد » نفسه قبل ان يبدا علاجى النفسى ..ولكنى لم أعد الى الفرار بعد ذلك .. وارجو أن تكون الحال معك كذلك .

* * *

الفصل الرابع

حديث مع المحلل النفسى

« انه صديق مخلص ذلك الذى
يلطف من رغبات الناس ونزعاتهم
الثائرة بمحاولة طرد الافكار
والاتجاهات الخطيرة من رؤوسهم »

جون كيتس

الح على الدكتور « جولد شميدت » فى ان احافظ على موعد مقابلتى للدكتور « مكسويل » بكل دقة .. لقد زالت مقاومتى للفكرة نهائيا خشية حدوث نوبة القلق لى مرة أخرى . وقد كان من نتيجة ذلك اننى وصلت الى عيادة المحلل النفسانى فى الساعة السادسة والربع بدلا من الساعة السادسة والنصف !

ولما احتوتنى غرفة الانتظار ، وجدت رقعة صغيرة من الورق عليها بضع كلمات : « سيلقاك الدكتور مكسويل فور فراغه » !

فكان على اذن ان انتظر كطلب السكرتيرة منى ... وكانت غرفة الانتظار أنيقة مؤثثة فى بساطة وحسن اختيار ، لاشك نتيجة للذوق البارع الذى يتمتع به من اختارها ، وراعى تنسيق الوانها الملفتة للانظار ، والتى ترتاح لها العيون .. وكان شعورى كذلك عندما دخلت عيادة الدكتور ... وهى قاعة مكتبه الخاص ... لقد لقينى احسن لقاء فى الموعد المحدد تماما ، وهو منتصف السابعة

كان دكتور مكسويل فى الخمسين من عمره ، رقيق العبارة ، ناعم الاسلوب ، غير مدع ولا متكلف .. وكان صوته الهادىء المهذب لا يتناسب مع جسمه العملاق وطوله الفارع .. انى اطول قليلا من ذوى القامات العادية ، ومع ذلك فقد بدت راحتى كما لو كانت توارت فى قبضة هذا العملاق وهو يهز يدى مرحبا !.. ان مظهره ومظهر مكتبه وما يحتوى عليه من أثاث قد اثار عجبى !

لقد كنت اتوقع ان ارى فى أثاث مكتبه ، وحسن تنسيقه ، وتعبيره عن مظاهر النعمة والبذخ شيئا غامضا هادفا لا أدرك كنهه ! وكانت ـ لاسباب عدة ـ قد سطعت فى راسى تخيلات كثيرة : قاعة رحبة رائعة ذات اضواء مستورة ، وطنافس غالية ، وصور زيتية ثمينة من المحتمل ان يكون بعضها لنساء عاريات رائعات الحسن ، تشغل دون ريب ركنا ظاهرا من القاعة ! وتصورت وجود «بيانو» يقبع فى ركن قاعة ضخمة متسعة .. وتخيلت رجلا يجلس امام المكتب .. رجلا طويل القامة ، ضامر الجسم ، له هيئة فنية خلابة تبدو واضحة فى ملامح وجهه .. يزين شفته العليا شارب بديع منسق ، وذقنه تكسوها لحية مدببة مهيبة !. وهذه اللحية التى تخيلتها كانت كأنها محفورة فى خيالى على انها حقيقة واقعة .. فتصور كم كانت صدمتى عندما قابلت دكتور مكسويل .. كانت صدمة عنيفة الوقع ... داعية الى القهقهة الهستيرية الصاخبة ، لاننى وجدت دكتور مكسويل حليق الوجه تماما !! لا شارب له ولا لحية !..

والواقع أن القاعة كانت بسيطة الاثاث .. وهو اثاث اخضر جميل ترتاح اليه العين ، وترتاح عليه الاجسام !.وكان من البساطة بحيث لايزيد على بضعة مقاعد قليلة مبثوثة فى ارجاء العيادة ، وفى ركن من القاعة المضجع المريح .. اما الجدران فلم يكن معلق عليها سوى بعض الدبلومات العلمية .. وفى الركن الذى تخيلت أنه يحتوى على بضع صور لنساء عاريات ، كانت صورة كبيرة لرجل واضح المعالم ، له نظرات صارمة معبرة ، كانت لقوتها والتعبيرات المتألقة فيها تصيب الناظر اليها بالرعب بحيث ترتد نظراته عنها !.. وقد عرفت فيما بعد ان هذه الصورة كانت لدكتور « سجمند فرويد » العالم النفسى العظيم

وكان دكتور مكسويل خلوا من اية سجية او طبع يمكن لك أن تتبينه فى تصرفاته .. كانت ابتسامته عذبة مرحبة ، وكان جسمه بادى الاسترخاء وهو متهالك بين ذراعى مقعده الضخم أمام مكتبه

.. وكانت أمامه على المكتب علبة من الكرتون مليئة بشطائر « السندويتش » ، وعلبة أخرى بالفطائر المصنوعة باللبن، والفاكهة والجبن ، وقهوة فى « ترموس »

وقال :

ـ لنتحدث وانا اتناول طعامى ... فليس لى من الوقت الا هذه الساعة ، اذ على أن أحاضر فى الثامنة بمجمع العلماء

فشجعنى اسلوب حديثه على التحدث اليه فى حرية ودون تحفظ عن مشاكلى الحالية وانفعالاتى المضنية .. فقال انه يعرف مجمل خط سير على من الدكتور « شميدث » ولكنه يود منى أن ارسم له صورة دقيقة عن توتراتى الانفعالية التى مرت بى فى اطوار مختلفة وتجارب عدة .. فشرحت له ما اراد بالتفصيل ، ثم صارحته بعدم ارتياحى وخوف من التحليل النفسى ، وعن رحلتى الى نيويورك ..

وقد اهتم بوصفى لنوبة القلق التى تحدث لى ، واخذ يسألنى فى اسهاب عن مثل هذه الحالة فيما مضى من حياتى .. فوثبت الى ذهنى صورة لم اكن اتوقعها وهى ذكرى لحظة انزعاج عابرة مرت بى فى سن الرابعة عشرة وتتلخص فى اننى دعيت الى حفلةموسيقية وكان الداعى موسيقارا مشهورا من العازفين على « الكمان » .. فلبيت الدعوة وحيدا .. وهناك .. فى الحفل شعرت بالوحدة والاضطراب ، والبلبلة ، والغم الذى لاحد له !

وقد ساعدت الموسيقى على زيادة حالة الانزعاج لدى ، واذا بى واقع تحت تأثير رعب لايقاوم ملك على زمامى ، ورغبة فى ان افر هاربا من مكان الحفل الى مسكنى !. ولبثت دقائق عديدة احاول المقاومة مستميتا حتى استطعت فى النهاية ان اسيطر على حالة الخوف ، وبقيت فى الحفل !..

وسألنى دكتور مكسويل عن احلامى .. خصوصا التى تصدر عن كابوس أو تتصف بالقلق والانزعاج .. ثم سألنى فى اختصار عن ـ حياتى الجنسية ـ من حيث القدرة على الفعل الجنسى ، والتمتع

به ، وعما اذا كان هناك اى شعور بالقلق متصل بذلك . ثم سأل ايضا عن رأيى فى الزواج

وبعد ان اصغى الى تفصيل واف عن توترات اعصابى ، وسماتى الشخصية البارزة ، وثب فورا الى هدفه المباشر وقال :

ـ انك فى حاجة الى مساعدة تأتى عن طريق التحليل النفسى . ومن المحتمل ان يكون تحليلا شاملا ...

ثم فسر مشورته بأنه من المعتاد ان يستغرق التحليل الاولى مدة اربعة أو ستة اسابيع ، وبعدها يستطيع أن يقرر المحلل بعد حصوله على بيانات كافية ـ اذا كانت الحال تحتاج الى تحليل نفسى شامل أم لا .. ثم قال فى صراحة تامة انه لايستطيع أن يعد بامكان النجاح فى علاج قرحة المعدة التى هى اصل علتى .. ولكن من الممكن التنبؤ باحتمال حدوث تحسن حقيقى على اساس النتائج التى توصل اليها هو وزملاؤه من المحللين النفسيين . ثم اشار الى أنه يوجد لدى الكثير من التوترات والمشاكل الانفعالية التى لم تحل بعد . ولو امكن الوصول الى حل لها ، وامكن تحقيق حياة انفعالية اكثر ثراء وهناء ، فان هذا يعنى ان التحليل النفسى له فائدة عظيمة حتى ولو لم يشف قرحة معدتى .

وقال لى فى صراحة :

ـ ان العلاج النفسى الذى تحتاج اليه من النوع الذى قد تطول مدته .. ويحتاج الى تكاليف باهظة .. وقد يطول احيانا لسنوات .. وهذا يتوقف على طاقة المريض المادية .. فاسمح لى بأن أسألك ماهو مرتبك السنوى او دخلك ؟. قلت :

ـ اتقاضى مرتبا سنويا قدره ستة آلاف ريال .. وعمولة نظير تنازلى عن بعض اختراعات قدمتها لشركات ، ما بين الخمسمائة ريال والالف .. اى ربما كان مجموع ما احصل عليه سنويا قرابة سبعة آلاف دولارا ..

فقال على الفور :

ـ اذن سوف أتقاضى منك عن الجلسة الواحدة لمدة ساعة خمسة عشر ريالا ، ولا تزيد الجلسات عن خمس جلسات فى الاسبوع ..

قلت :

ـ هذا معناه أن تتقاضى مني ثلاثمائة ريال فى الشهر ، وهو اكثر من نصف ايرادى الشهرى ! . الا تظن انه أجر مرتفع ؟

فصارحني بأنه أجر مناسب ، خصوصا وانه يقوم بعمله دون مساعد ولا يستطيع أن يعمل اكثر من ثمانى ساعات فى اليوم ، ومع مرضى لايتجاوز عددهم اصابع اليد الواحدة لطول فترات الجلسات ... وذكر لى أن هناك غيره من المحللين النفسيين يتقاضى الواحد منهم خمسة ريالات ولكنه يقابل اكثر من خمسة من المرضى فى اليوم الواحد !

ثم كان كريما فعرض على أن ادفع أتعابه مقسطة على خمس سنوات فسررت لهذا العرض وقبلت فورا ..

وأعطانى بيانا بمواعيد الجلسات .. وقد اتفقنا على ان اكتفى بجلسة واحدة أو جلستين فى الاسبوع لبضعة اسابيع حتى يمكنه أن يحتجز لى ساعة من وقته يوميا ما عدا السبت والاحد ..

وطلب الى ان اصارحه بتاريخ حياتى منذ الصغر حتى هذا الوقت ، قبل أن يبدا علاجه ، وسألنى عما اذا كان هناك مايجول فى خاطرى وارغب فى السؤال عنه ، فلم ازد على ان سألته سؤالا قد يكون سخيفا فقلت :

ـ دكتور مكسويل .. هل سأعرف نفسى على حقيقتها بعد انتهاء علاجى ؟

فأخذت قهقهته تدوى ثم قال :

ـ دون شك ستعرف ذلك . واننى أتعشم أن تشعر بالالفة والقرابة من نفسك الحقيقية .. لن تكون ذاتك غريبة عليك ، وهذه النقطة هى الاساس فى العلاج

ثم أوضح أن التحليل النفسى لايقدم شيئا جديدا غريبا عن شخصية المريض ، ولكن التحليل الناجح هو الذى يتيح للمريض فرصة التحقق من امكانياته وقدراته الى اقصى حدودها . ثم اضاف مبتسما :

ـ اننى اشك فى أن ينتهى بك الامر الى أن تصبح عازفا على الكمان لا اخصائيا فى الكيمياء .. والآن حان الوقت لتنصرف اذ احتاج لبعض الوقت كى أعد مذكرات عن محاضرة الليلة .. وموعدنا يوم الثلاثاء القادم فى الرابعة مساء .. طاب ليلك !

وصافحته وغادرت العيادة مسرعا الى مسكنى ..

* * *

الفصل الخامس

قصة حياتى

« فور أن تكون لك علاقة بالمخلوقات
ستكون لك أيضا عاطفة نحوهم »
س. داى لويس

رسم لى دكتور مكسويل كيفية سرد تاريخ حياتى كما يحب هو ان يسمعه منى . انه يريد أن يكون محتويا على الوقائع أو الحوادث الرئيسية .. وتاريخا مختصرا عن طفولتى وما بعد الطفولة .. وخصوصا ما اتصف خلالها بالخلق المنبوذ ، أو الصفات السيئة أى موجزا لتاريخ حياتى يشبه مانقرؤه فى الكتب والمجلات عادة . انه لايريد تفسيرا للسلوك ، أو تعمقا فى مناقشة الاستجابات والانماط الانفعالية ، لان كل ذلك سيفسر من تلقاء نفسه تدريجيا خلال جلسات التحليل النفسى فلم يكن هناك بد من رواية قصة حياتى كما هى دون تزويق أو بتر أو تغيير فقلت :

ـ ولدت فى مدينة « ميدل تاون » ، وهى احدى مدن الغرب الاوسط .. كانت مدينة صناعية ، ولكنها برزت كمركز تجارى مهم يعتبر المركز الرئيسى للتجارة وسط المزارع الشاسعة التى تحيط بتلك المدينة الصناعية التجارية .. وكان عدد سكان « ميدل تاون » عندما ولدت لايزيد على ثلاثين ألفا .. وقد هاجر والداى من أوروبا الشرقية الى الولايات المتحدة الامريكية وكانا فى الثامنة عشرة عندما التقيا فى ادارة شركة الملاحة فى همبرج وهما ينتظران استخراج تذاكر السفر .. وبعد أن وصلا الى نيويورك اقام أبى فى بيت ابن عم له ، بينما اقامت أمى فى بيت أخت لها أكبر منها . وفى نيويورك اشتغل ابى خياطا ، وامى خياطة فى احدى شركات الملابس الجاهزة .. وبعد عام تزوجا بعد تعارف وحب ..

وكان ايجاد مسكن لهما فى نيويورك هو مشكلة المشاكل بعد حياتهما القروية فى أوروبا .. لقد بدت لهما مدينة نيويورك هائلة مخيفة .. ولم يلبث ابى أن عاد الى الغرب الاوسط ليعمل مع عمى التاجر الكبير تحت تأثير البطالة ..

وكانت عائلة ابى تشتغل بالتجارة فى أوروبا ، ويرعبها ويصيب افرادها بالفزع أن يشتغل احدهم عاملا أو صاحب مهنة غير التجارة. ولكن عمى كان رأيه أن أخاه ـ أبى ـ لايصلح الا ليقضى طول عمره فى مصاف العمال .. وكان ابى يكره عمى هذا ، ولكنه اشتغل معه على مضض وأمكنه بعد بضع سنوات أن يوفر بعض النقود .. وهذه مع نقود اخيه استخدمت فى أعمال محلية .. وبضربة من الحظ أثمرت هذه النقود وأتت بربح وافر . وقد أثرى والدى من وراء مجازفاته المالية ، ولم يلبث ان صار سمسارا لايشق له غبار ، وصاحب مكتب تجارى كبير .. ولم يعترف ابدا بأن الحظ هو السبب فى ثرائه ، ولكن الجرأة والمثابرة والكفاية وانتهاز الفرص هى التى انقذته من التردى فى هوة الفقر وانقذته من مصاف العمال من دائرة البيئة الكادحة الأخيرة ..

وبعد مرور بضع سنوات كان ابى وعمى يعزون ضربة الحظ الى قصة الكفاية الفائقة التى بذلت فى نجاح فى دنيا الاعمال والمال .. ولما كبرت سمعت قصة ذكرتنى بما يقوله ابى وعمى عن نجاحهما وهاهى القصة : « كان هناك صرصاران كبيران يعيشان سويا فى احد اكوام السماد باحدى المزارع .. وبحكم جوارهما توطدت الصداقة بينهما .. وفى يوم من الايام حل ميعاد تسميد الارض ، فبدأ المزارع ينقل السماد الى الحقول فلم يعد للحشرتين مكان ، ولكن أحداهما تمكنت من الوصول الى كوم آخر من السماد غير مطلوب ، بينما سارعت الاخرى دون تريث أو تدبير الى قناة ليس فيها الا الوحل الذى تصنع منه الاوانى الفخارية والخزفية ، ولا شىء فيها يسد الرمق ، فكاد الصرصار يموت من الجوع .. وخطر له أن ينتقل الى حيث يجد صديقه الصرصار الثانى ، وأقبل عليه

فرحا مستبشرا فوجده قد ترك السماد الجديد وانتقل الى ساق غليظ لشجرة جميز عتيقة فيه رزق وفير .. ونادى صديقه قائلا : « اهلا يا صديقى العزيز » ، فتجاهله الصرصار الماكر وقال له فى احتقار : « من انت ؟.. انا لا اعرفك .. اغرب عن وجهى ! » فأخذ يذكره بجيرتهما وصداقتهما القديمة وهما يعيشان فى كومةالسماد فى حوش المزارع ، فلم يرد عليه واصر على تجاهله !.. فصاح الصرصار المتضور جوعا قائلا : « بحق الله اخبرنى عن سر نجاحك» فرد عليه الصرصار الماكر قائلا : « ليس فى الامر سر وانما هى مسألة عقل وشخصية » فقال الصرصار البائس : « لست أفهم ماتقول » قال : « أيها الغبى .. لو اعملت عقلك كما فعلت انا ، وكانت لك قوة شخصيتى لما انتقلت الى مكان موحل لا تجد فيه طعاما غير الوحل !. ان السر فى العثور على مكان فيه رزق كثير يكمن وراء الوعى وقوة الشخصية !.. »

* والآن أعود بك يادكتور مكسويل الى نشأتى . لقد بدات حياتى فى بيئة متوسطة .. كنت الابن الثالث لوالدى ، ولى شقيقاتخمس اصغر منى سنا . ان كل احداث حياتى فى فترة الخمس سنوات الاولى من عمرى ، كانت تدور كلها فى نطاق البيت ، ومع أمى ، لان أبى كان من النادر ان القاه ، اذ يغادر البيت فى ساعة مبكرة لعمله .. ويعود من عمله فى ساعة متأخرة وانا نائم ... ولم يكن يتمتع براحة أو نزهة الا فى يوم السبت من كل أسبوع ، وهو الوقت الذى اراه فيه ..

وكانت أمى كالنحلة .. شعلة عمل .. تقوم بكل أعمال البيت .. تنظيف ، وطهى ، وغسل ملابس ، وصنع خبز أو كعك ، وقطف فاكهة ، وعصر عنب لصنع النبيذ ، وشراء خضروات .. لقد كانت ربة بيت كاملة .. وتتحلى بطيبة القلب ، والعطف على الصغار .. وقد أعتادت أن تهيىء لى ولاخوتى بالترتيب الدورى فرصة رؤية الدنيا خارج جدران البيت ، بأن تصحب احد ثلاثتنا الى سوق البلد لشراء اللحم والبقالة وغيرها مما يحتاج اليه البيت ...

وقد سمعت من امي انني كنت برفقتها ذات يوم وكان عمرى أربعة اعوام .. ودخلت احدمحال البقالة لشراءبعض الاشياءوتركتنى امام الحانوت لارى حركة الطريق ، وأوصتنى بعدم الانتقال من مكانى بالمرة ... ولم تغب ـ كما قلت ـ اكثر من بضع دقائق ، ولما خرجت لم تجدنى !. فصرخت وولولت وانتهى الحال بها الى ابلاغ رجال الشرطة .. وبعد بحث طويل عثروا على واقفا عند راس جسر تمر تحته القطارات اشاهد مرورها فرحا مستبشرا بينما كانت هى فى حالة يرثى لها !

وعندما بلغت الخامسة من عمرى ، اخذتنى الى « روضة أطفال » على مسافة قصيرة من بيتنا ، وتركتنى فى المدرسة مع ثلاثين طفلا من سنى لا اعرف أحدا منهم .. فكانت الوجوه الجديدة الغريبة على ، وغرابة المدرسة مثار رعب هائل اصابنى ، فاندفعت الى خارج قاعة الدراسة وأنا اصرخ ، وهربت الى بيتنا طالبا امى وانا ابكى فى حرارة .. ومر اسبوعان قبل ان تستطيع امى أن ترشينى بقطع الحلوى ، وتعدنى بأنها ستبقى بجوارى فى المدرسة ..

وقد اخبرت امى المعلمة عن خجلى ورعبى ، فما كان من المعلمة المدربة على معاملة الصغار ، الا ان جذبتنى الى ناحيتها فى حنان الام ... وكانت تشبه أمى فى ملامح الوجه والجسم .. طويلة ، مفتولة العضلات ، رشيقة ، ممشوقة ، شقراء .. فتملكنى شعور غريب ، وخيل الى اننى فى بيتنا !..وانتهى الامر بى الى أن اطلب من امى العودة الى البيت وتركى فى المدرسة ..

ولم تمض سوى ايام قليلة حتى كنت طفل المدرسة المدلل !. خصوصا بعد ان تبين لها أننى بارع فى عد الارقام .. ولم يمض غير وقت قليل حتى كانت المعلمة تطلب منى العد حتى الالاف .. ثم تدرجت فى سرعة الى اجراء تمارين أولية على الجمع ، والطرح ، والضرب ومن حسن الحظ أن هذه كانت آخر خطواتها معى .. والا لتدرجت معى ، وانا فى سن الخامسة الى عمليات الجبر والحساب !

واني اذكر انني عندما وصلت الى السنة الرابعة المدرسية كنت فى الذروة ، لان احدى المدرسات اهتمت بى اهتماما بالغا بشعور فياض من جانبها ، فلم تلبث هـذه العناية حتى جعلتنى أول فرقتى ، والطالب الاول فى مرحلتى !.. ومن ثم ظللت محتفظا بالاولوية فى جميع سنى الدراسة .. فى المرحلة الابتدائية ثم الثانوية ، ثم العالية .. كنت أحصل على الدرجات النهائية فى أغلب المواد ، وساعدنى نبوغى فى الرياضيات والعلوم والتاريخ على أن أتقن لغات كثيرة ، واتعمق فى الفنون ، بعد ان امتدت بى الدراسة ..

وقد غمر امى فيض من الزهو والسرور لنجاحي الباهر هذا .. وكان لها دائما منبع سعادة وفخار ! ولكننى شخصيا ، كنت أحس بمشاعر متضاربة نحو مركزى هذا بين أقرانى !.. على أننى كنت طبعا أقاسمها سعادتها وزهوها ، وتهانى المدرسات والمدرسين والكثيرات من البنات .. كان هذا ظاهريا ، ولكن الحقيقة اننى كنت غير مستريح لهذا التوفيق فى الدراسة ، لاننى كنت خاويا من كل تفوق رياضى .. كانت خبرتى الرياضية متوسطة وانا اريدهـا ممتازة ..

ولما وصلت الى السنة السادسة الدراسية تحول الجو ، وأخذ يبشر بأعاصير مقبلة .. وقد حدث هذا بالفعل ، اذ تعصب بعض الاولاد ضدى لغير ما سبب ، وتحزب لى عدد قليل من الرفقاء ، وتكونت منـا زمرتان ، زمرة قليلة العدد ، هى التى اتزعمهـا انا ، وزمرة اكبر عددا يتزعمها من يدعى « ميك كاسيدى » .. وفى ذات يوم هجمت علينا الزمرة المعادية هجوما مفاجئا فلم نستطع اختراق طريقنا الى مساكننا الا بعد ان نالوا منا ، وحطموا راس زميل لى ، وركلوا آخر وضربوه ضربا مبرحا بعد ان القوه ارضا فأصيب باصابات خطيرة ...ومزقوا ملابسى .. ولكنى كنت ملاكما ممتازا فاستطعت ان اثأر لنفسى ولزملائى وأن اخترق طريقى بعد ذلك بقوة قبضتى .. لقد مرت بنا ساعة رهيبة مروعة !

وفى اليوم التالى تجمع غلمان الزمرة وضموا أليهم غلمانا من فرق

اخرى حتى صار عددهم خمسين تلميذا .. كل أولاء أحاطوا بنا وراحوا يسبوننا .. فلما شاهدوا « مس توتل » قادمة كفوا عن الصراخ وتفرقوا .. ولكن رئيسة المدرسة لم تفتها هذه الحركة واشتمت رائحة حوادث فسألت ، ولما اخبرناها بالامر تطوعت ان ترافقنا الى حيث نسكن ولكننا كنا فى اشد الخجل لاننا لم نقبل ابدا أن نكون تحت حماية سيدة .. ولم يسعنا الا ان نشكر لها تطوعها .

واذكر اننى صحت من خلفها وهى تسير : « لا يهمك أمر هؤلاء الصغار . فى مكنتى ان اصرع «ميك كاسيدى» زعيمهم بضربة ساحقة، ويدى الثانية مقيدة خلف ظهرى ! » .. لقد كنت ابث الحماسة والشجاعة فى أفئدة رفاقى لاننى كنت زعيمهم .. وعقب غياب ناظرة المدرسة عن منطقة الشجار برزت العصابة اللعينة مرة اخرى وقد نظمت صفوفها فى حركة زحف رتيب ، وأخذت الاحجار تطير فى الهواء وتتساقط علينا كالمطر .. فقال الضعفاء منا فى جزع : « سيفتكون بنا » .. فنصحت بأن نسير فى تشكيل ملاصق كطابور ، وشرحت لهم كيف اعتزمت أن اتحدى « ميك كاسيدى » وانا واثق من صرعه — وفى الحق اننى كنت شاعرا فى صميم نفسى انه يفوقنى قوة وبطشا — وكنت اشتم رائحة نكبة مقدمة علينا .. وسرعان ماوصل الخصوم الى مسافة قريبة منا ثم سدوا المنافذ علينا !. فخطوت خطوة الى الامام وقلبى يدق ، وعضلات ظهرى فى توتر واختلاج !. وصحت فى « ميك » قائلا : « هيا نتقاتل نيابة عن الجميع فى صراع عادل » .. فهتف كل من فى الساحة ، وتقدم كل منا نحو الآخر وكانت خطة المباداة قد اختمرت فى راسى ، فانطلق ذراعى فى ضربة مدمرة لم يكن يتوقعها فهوى الى الارض دامى الانف! كانت ضربة شمالية موفقة ، جعلته يعوى صارخا وهو ملقى على الأرض . ثم قلت له : « لقد ذكرت أن فى امكانى صرعك بيد واحدة والاخرى مقيدة خلف ظهرى » .. فانتهز رفاقى هذه الفرصة وصاحوا فى شماتة وفرح قائلين « جبان ! » . وكان هو قد صار

فى حالة يرثى لها من الخوف واخذ يستغيث .. وغمر الخجل الخصوم الذين يتزعمهم .. وهنا كانت الفرصة مواتية فاقتنصناها وانسللنا وهم مازالوا تحت تأثير الدهشة والخجل ، واسرعنا الى بيوتنا !..

وكان فى اليوم التالى فصل الخطاب للقضاء على الفرائس الضعيفة القليلة العدد ، فأعد الخصوم عدتهم وتربصوا بنا للفتك منتقمين . وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما وجدنا ضمن فرقتنا الضئيلة ثلاثة من الشبان الاقوياء من المرحلة الثامنة ، جاءوا لمساعدتنا ، وكانوا مشهورين بالبطش ، واطلق عليهم اسم « الفرسان الثلاثة » ، وكانوا محبوبين جدا من تلاميذ المراحل الاصغر .

وتقدم الثلاثة نحو المتآمرين فى تحفز ، فاختلت صفوفهم وتفرقوا فى خوف بالغ ليختفوا .. أما «ميك» فقد هاجمه « الفرسان الثلاثة » وقبضوا عليه ، ثم جردوه من سراله وتركوه شبه عارى تنكيلا به وسخرية منه !..

—•—

وكانت ايام المراهقة هى اصعب ايام حياتى .. لاننى عندما بلغت من العمر العام الثانى عشر بدت نزعة التمرد على اية سيطرة ، حتى سيطرة والدى ، تظهر جليا فى تصرفاتى !

وفاجأنى دكتور « مكسويل » بسؤالى عن الدافع الذى وجهنى الى دراسة الكيمياء لاكون عالما كيمائيا فذا .. فرويت له أننى كنت صديقا لاحد زملائى فى المدرسة .. وكان أبوه كيمائيا كبيرا ، فكان التقائى به طبيعيا وانا فى صحبة الابن والزميل « بيل » ..

وكان رجلا طيبا يحبنى كابنه ، ويعطف على ، وكثيرا ما كان يدعونا لمرافقته فى رحلات صيد السمك ، ويوفر لى كابنه حياة كلها حرية لاقيود فيها كما لو كنا رجالا ، مما أشعرنا بأن لنا شخصية كاملة ولم نعد بعد غلمانا فى طور المراهقة ...

كانت الحياة التى وفرها لنا حياة غريبة على .. لم أجدها من والدى نفسه .. وقد راقت فى عينى ، وأصبحت انظر الى الرجل كمثال نموذجى ، وملت بكليتى الى الكيمياء ، وبرعت فيها ، حتى

كانت اجابتى فى الامتحان السنوى بالغة الذروة ، فنلت جائزة التفوق ..

وفى المدرسة العليا ، توالت انتصاراتى العلمية بجوار جائزتى فى الكيمياء .. وبعد ذلك حصلت على امتياز التفوق فى العلوم العامة ، وكنت خطيب حفلة الوداع فى آخر السنة .. ولكن مع الاسف ظللت فى المتوسط فى الالعاب الرياضية لا اتحول عن مركزى ، وان كان يخفف عنى ما اعوضه عن ذلك بتفوقى المكتسح فى العلوم ، حتى كاد يقلل من اهمية الرياضة البدنية لى واحتياجى اليها ...

وكنت انمو جسمانيا بسرعة ، ولدى النقود الكافية لشراء الملابس الانيقة الغالية حتى صرت فى وقت قصير محبوب الفتيات ..

وتطورت الحال معى من عشق المراهقة الى حب جارف ، فتورطت فى حب فتاة اكبر منى سنا ، كانت تستقل نفس الحافلة التى تنقلنا الى المدرسة الثانوية .. وكانت فى اول الامر تسر اذ تترك لى حمل كتبها عنها او انتظارها امام فصلها عند الخروج لننصرف سويا .. ثم بعد ذلك تطورت الحال بيننا فقبلت أن أكون صديقها الملازم برغم فارق السن ، حيث اننا كنا نمارس لعبة التنس معا .

وفى ذات يوم ، بعد مباراة رابحة ، كنت بجوارها فى سدة الباب للراحة ، وفى حالة استرخاء تام عندما خرج ابوها - ولم يكن سبق ان التقيت به - ونحن على هذا الوضع البرىء ، فنهرنى فى غلظة ، فبكت « مارى » فى مرارة .. وغادرت مكانى فى سكون كاظما غضبى الذى كان يملأ صدرى .. ولكنى استطعت السيطرة عليه رغم رغبتى القوية فى ضرب الرجل !

وبعد أن مرت بضع سنوات على هذا الموقف المؤلم ، قررت ان اكتفى بالبحث عن فتاة لاتخذها زوجة متى اعتزمت الزواج ، توفيرا لآلامى وحفظا لكرامتى ..

ولما دخلت الكلية التى تبعد خمسين ميلا عن « ميدل تاون » غمرنى السرور لاننى ايقنت اننى سوف اعيش فى مدينة كبيرة حيث أجد المسارح الفخمة ، ودور الموسيقى العالمية ، والفنون الجميلة

كما اجد هناك الوسط المثقف والبيئة المهذبة .. وحيث يسهل هناك التعرف بفتيات ونساء فاتنات أجد بينهن المتع والترفيه ، والجمال والحب وما الى ذلك من حياة اللهو والمرح التى حرمت منها طويلا منذ المراهقة حتى هذه السن !

—•—

ولما وصلت الى هذه النقطة ، كان الوقت قد أزف لانهاء الجلسة ب
فقال دكتور مكسويل :

ـ يكفى هذا .. لقد كان فيما قلته الكفاية .. وغدا نبدأ فى سماع تاريخ حياتك منذ لحظة دخولك الجامعة

* * *

الفصل السادس

الإفصاح

« اننا نحس بالرعب والرهبة
يتمشيان فى نفوسنا عندما نقدم
على البحث عما يختفى فى طيات
عقولنا »

وليم وردزوورث

تتضمن المتداعيات الحرة الطليقة كل المادة الخام الرئيسية فى التحليل النفسى . ويعد فن التداعى الحر Free Association بسيطا للغاية . ففى بداية كل جلسة كنت اقضى جزءا من الوقت فى تحية المحلل ، وفى التعليق على الطقس . ثم اتمدد على المضجع. وقد شرح لى دكتور مكسويل قواعد التداعى الحر من قبل ، ولكنه لايفتأ بين حين وآخر يكرر احدى هذه القواعد « قل كل شىء يخطر ببالك تاما وكاملا مهما تكن قيمته فى نظرك . لاتحاول ان تخفى شيئا او تحجزه عنى » . كما طلب منى أيضا ان اذكر له اى تغيرات مزاجية تطرا على كأن اقول مثلا « اننى أشعربالغضب » او « لقد كنت متوتر الاعصاب وبدات أحس بالعرق قبل أن الفظ هذه الكلمات »

ولما بدات جلسات التحليل النفسى ، اكتشفت أنه من الصعب جدا اتباع القاعدة الاساسية للتداعى الحر — اى التقرير الكامل . كنت اجد صعوبة فى ان اقرر الحوادث كما وقعت تقريرا شاملا وصريحا . . كنت اود أن انسق هذا التقرير واصفيه ثم بعد ذلك اختار اهم عباراته وفق تقديرى لها . . اختار العبارات المؤثرة او المشوقة . . اما الملاحظات المتسمة بالغضب ، أو الافكار التافهة التى تزول كزبد الماء قبل أن تتصل بالادراك والحس ، فهذه كنت امر بها كأشياء تافهة لاتستحق أن يلتفت اليها لضآلة قيمتها فيما ظننت . .

وفى بدء علاجى اصبت بانزعاج قاس لاننى اكتشفت اثناء حديث عابر عن بحث كيمائى مع « الدكتور مكسويل » ان الكثير من الافكار التى ساذكرها فيما بعد كانت تلح على الحاحا شديدا فى ان اسمح لها بان تطفو فى عقلى .. وهاهى :

« ان أبى كاذب دعى !.. اريد أن أجمع مليون دولار بل بليون!.. ان دكتور مكسويل يرهقنى بالاجر الفاحش الذى يطلبه ! »

وانقضت جلسات قبل أن أدرك أهمية هذه الافكار الوحشية الخارجة عن اللياقة والعرف والادب .. ولكن بمرور الوقت نجحت فى جمع مثل هذه الافكار المرة ودفعها فى مجرى واحد مشترك .. وكان دكتور مكسويل يقول لى فى لهجة جديدة مؤكدة مطمئنة :

« لاتحاول ان تكون منطقيا .. لست هنا عالما كيمائيا سليما ولكنك انسان له مشاكل متصلة بالعواطف والاحساسات .. ان الانفعالات ليست من المنطق فى شىء كما هى الحال فى المعادلات الكيمائية .. اترك لانفعالاتك حرية التعبير عن نفسها ، ولا تقف فى طريق تقدمها .. سيكون اعتراضنا لها نحن فيما بعد متى حان موعد الاعتراض والوقوف فى الطريق »

وبدت مشكلة أخرى فى أول الامر .. كنت البث صامتا لبعض الوقت وانا فى حالة استلقاء .. وكان الدكتور مكسويل يصبر على الصمت لمدة خمس عشرة دقيقة ثم يشجعنى على التحدث ويحثنى، فأشعر بعدم قدرتى على الكلام . و لااجد فى نفسى قابلية للتحدث !

ولما تمرست بمضى الوقت على استرجاع الجملة التى تتسبب فى توقفى عن الكلام وتبنيها ، بمساعدة دكتور مكسويل ، كنت اعود الى التحدث مرة أخرى !. وخلال الايام الاولى من التحليل كنت اشعر نحو دكتور مكسويل بأحاسيس طيبة فى أوقات خاصة يعقبها شعور بالكره والعداء الذى لا حد له ! فابدأ بالقول :

« اننى اشعر شعورا طيبا يادكتور مكسويل نحو الطريقة المثلى التى تقوم بها فى علاجى .. انك طبيب مدهش رائع .. وانا واثق من شفائى على يديك » .. ولكن يحدث فجاة ان تقحم الكلمات

التالية نفسها على وتتدافع من فمى « ولذا فانا .. اود ان .. اود ان المس ردفيك ! »

ومن ثم اشعر بتوتر فى اعصابى ويغمرنى عرق كثير .. ولا اجد فى نفسى قوة على النطق بكلمة واحدة !!..

ثم تزدحم الافكار والخواطر فى راسى كما لو كانت متشابكة فأقول فى حالة احسب انها لاشعورية « لا اجد مايشجعنى على توقع الشفاء .. اننى شاعر بأن حالتى أسوأ مما كانت عليه !. ان قرحة معدتى تؤلمنى ، وترفس كالجواد المشاكس الحرون .. ان هذا العلاج كذبة مضايقة للنفس .. اننى اود أن .. » .. ثم تراودنى فكرة وصف دكتور « جولد شميدت » بأنه رجل مخنث .. لارجولة عنده .. فامسك عن ابرازها فى كلمات لا استطيع ان اقولها . واعود الى الصمت !

وهاهى بعض نماذج من الانفعالات والافكار التى كانت تتزاحم فى راسى وكنت أفضى بها فى صراحة وقحة وجراة تدعو الى الدهشة :

« يظهر اننى اضيع وقتى ونقودى يادكتور مكسويل .. ان راسى مفعم بالكثير من الذكريات عن امراة كنت اعرفها .. كانت لى بها علاقة .. وقد تسببت فى اغضابى .. العاهرة ! الفاجرة !. ماهو السبب الذى جعل الغلام لا يفرق موضعه من ظهر السفينة المحترق؟ لقد ادعت اننى قلت ان السيدة الحقة هى التى تأتى الامر ولكنها تقول انها لم تشعر بأية متعة وهى تأتيه ! لعنة الله على المنافقات .. اللاتى كل أفعالهن مصانعة ورياء ! »

* * *

« انا افكر فى البروفسور « لوتون » .. انه يشبه ابى .. لقد رايته امس فى وضوح وهو يهبط من فوق التل امامى مباشرة .. لقد ثارت اعصابى عند رؤيته .. وشعرت بتوتر شديد .. وقد شربت قليلا من الماء من نافورة هناك .. ولبثت افكر .. اناجى نفسى على الاصح « ماذا فعلت ؟. لقد قتلت رجلا !. ذات مرة .. هل فعلت هذا حقا ؟. هذا غير حقيقى » .. ان فلورنس انثى عذبة جميلة . كان يجب ان اتخذها زوجة .. هذا غباء منى وحماقة !

انا مازلت راغبا فى الزواج من عذراء بتول .. لماذا بحق جهنم نتكلم هكذا .. فى توسع ؟.. انا الآن فوق ظهر باخرة اقضى عطلة الاسبوع فى نزهة بحرية مع فلورنس .. لشد ما اكره استعمال الاسماء المزيفة .. الالقاب الجوفاء .. لقد شعرت بتوتر فى أعصابى عندما قابلت بعض الناس من بلدتى « ميدل تاون »

* * *

وقد اوضح دكتور مكسويل لى مرارا أن الحالة اللاشعورية التى تنتابنى من شأنها ان تغذى دوافع ونزعات العدوان والكره والخصومة او الجنس أو مظاهر الطفولة أو الحاجة الشديدة الى من انشد عونه ودفاعه عنى أو محبته لى ..

وعدت اقول وانا فى حالة لاشعورية :

« انى افكر فى مخزن اطعمة .. كان فى المنزل الاول الذى كنا نسكن فيه .. ولكن .. أوه . اجد صعوبة فى ان استمر فى الكلام .. لقد غمرنى العرق وتوترت أعصابى »

فقال الدكتور مكسويل فى هدوء ورقة :

ـ حاول أن تستمر .. ولكن اذا كان هذا يسبب لك الالم فلا داعى للضغط على نفسك ..

واستطردت اقول :

« انه مظلم .. رائحة عفونة من البلل .. صندوق من التفاح وتفوح رائحة عصير التفاح .. لقد وضعت يدى فى الصندوق فاصطدمت بتفاح معطوب عفن .. وهاهو ذا الرجل العجوز يحمل البلطة وبقية ادواته .. اللعنة عليه .. لقد هم بغلق باب المخزن على فلا أستطيع الخروج .. أوه .. هذه نار .. انه يهم باشعال النار .. لقد صعد«جيك» .. وهاهو ذا « ميك » يهبط .. ها مخزن اللحوم .. وها فخذ من « السلاما » .. انى أشتم رائحة المخلل .. انه مخلل مسز « بيرون » من الطماطم »

* * *

كنت أول مابدات التحليل النفسى لا اهتم ببعض الافكار الخاصة وانتخب وانظم غيرها من الخواطر والافكار .. ولكن بعد مران لمدة

شهور ثلاثة أخذت ــ وهذا عجب ! ــ امسك بالكلمات النابية الوحشية وانتقى العبارات الفاحشة التى كانت قبل ذلك تقطع حديثى وتعجزنى عن الكلام لفحشها ، وقحة الفاظها ..

وكانت هذه المترابطات السيئة المختفية فى اعماقى اكثر فائدة لى فى علاجى ــ كما دل هذا ــ أكثر من الكلمات ذات الاسلوب المهذب التى تتحدث عن الحوادث العادية الجارية ..

فكان الدكتور مكسويل يقول لى مثلا عندما الفظ مثل هذه الكلمات الوقحة النابية المعبرة عن رغبتى فى تشويه سمعة دكتور « جولد شميدت » ــ دون وعى ــ بأن اصفه بانه خنثى !. كان يقول : « ان هذا القولَ الذى تقوله وانت فى حالة لاشعورية ليس من التهذيب فى شيء خصوصا وانت تتكلم عن رجل له فضل عليك مثل دكتور شميدت .. ولكن الواقع أن التشنيع به ووصفه بانه مخنث او خصى ليس هدفك الحقيقى من هذه « المترابطات » ان هذه الكلمات الوقحة الفاحشة ماهى الا الكلمات التى يستخدمها عقلك الباطن فى التعبير عن شديد غضبك !.. »

ثم يقول : « لماذا هذا الغضب الشديد ؟. هذا هو السؤال الحقيقى .. لقد تبين لى من الافكار والاحلام التى تلفك فى وشاح سميك ، والتى ظهرت فى افق حياتك حديثا ، انك مستاء ومتمرد على سيطرة دكتور جولد شميدت عليك .. كطبيب تثق به ... انه يدير دفة زورقك فى الحياة ولكنك تود أن تكون الربان لتسير ذلك الزورق بنفسك .. ولكنه لايقحم نفسه عليك ابدأ ولا يتدخل فى خطة سيرك الا بقدر وفى بعض الحالات الخاصة .. ومع ذلك فانت متمرد على هذا الوضع ايضا !.. ومن هنا جاءت الكراهية .. ولكن من المحتمل أن يكون لها وجه آخر .. ناحية اخرى .. ربما كانت موجهة بطريقة معوجة منحرفة الى طبيب آخر .. الى أنا .. لانك فى الغالب وانت تحت تأثير دوافعك اللاشعورية تود أن تؤذينى بهذا السلوك العدوانى الشديد الذى يمليه عليك التأزم النفسى .. ولا سبب لذلك الا اننى ــ كما تعتقد ــ ارغمك على اجراء هذا

التحليل النفسي الطويل المدى ، الباهظ الاجر ، المؤلم لك »

عندما وصل دكتور مكسويل فى حديثه الى هذه النقطة استرجعت حلقة ناقصة كنت اتفقدها عبثا .. نسيت أن أذكر للدكتور مكسويل اننى فى تحدثى اليه اغفلت .. أو غاب عنى ان اوضح له مشهدا شاردا تحايليا .. وهو رؤيتى له فى جنازة ـ حقيقية او وهمية لست أدرى ـ وعندما ذكرت له هذا اقتنع بأن كل شىء مما قلت يبدو متوافقا متناسقا مع الصورة التى تنم عن الكره الذى اكنه له وللتحليل النفسي !

ولقد تبين لى بعد هذا التفسير ان هذا القول معقول وله معنى ايضا .. وقد تعامت منه شيئا عن حدة المقاومة الدفينة فى اعماق مشاعرى نحو التحليل النفسي !

وعندما وصلت الى المرحلة التى تتخللها فترات قليلة من الصمت اثناء التحليل ـ بمعنى أننى افضيت بكل ماتنطوى عليه نفسى ـ بدأت أشعر بالتقدم . ولم يكن مسموحا لى بأن تتشتت ذاكرتى . كما أن السجاير كانت ممنوعة على خشية أن أستغل الثوانى القليلة

التى يستغرقها اشعل السيجارة فى الهزوب من الكلمات التى تهددنى ولا استريح لذكرها

وقد تركت لى حرية اختيار طريقة التداعى أو ذكر احلامى . وقد كان دكتور مكسويل يسألنى عن احلامى من وقت الى آخر . لان الاحلام عامل مساعد فى تدفق المتداعيات الحرة الطليقة .

* * *

لو ترك للمريض الذى يعالج نفسيا امر التحدث فى حرية مطلقة .. لأمكن أن يضرب الرقم القياسى فى الثرثرة التى قد تصل الى مليون كلمة فى الجلسة الواحدة .. وقد يكون الاسلوب ممزقا مهلهل الجمل .. لارابط بينها ، ولكن ندر ان تكون غير مفهومة .. بل الاغلبية الساحقة منها لها المعنى الواضح .. والرأى الهادف .. والواقع أن كل ذلك يستخدم لتغطية مزاج المريض وتوتراته « وعدائه وكل مايخشى التعبير عنه فى احدى اللحظات . ولما قطعت الشهور

الاولى فى العلاج ، كان من الواضح اننى تمرست على طريقةالتداعى الحر اى التحدث عن خواطرى ونوازعى ودوافعى .. وقد تعلمت ان أروى ما اريد فى اسلوب خاص كما لو كنت « وسيطا » تحت تأثير غيبوبة التنويم .. فاقول مثلا : « اشعر أننى فى حالة طيبة اليوم . العلم سوف يتقدم .. لقد تم انجاز مشروعنا .. الرئيس يشعر بغبطة وسرور لما وصلت اليه ابحاثنا . وفى اعتقادي أننا ظفرنا بانجاز بحث قيم هام فى عالم الكيمياء .. وانا شخصيا احس أننى لعبت دورا هاما .. لى فضل كبير على العالم .. »

وتوقفت عن الكلام قليلا ولكنى شعرت بدافع داخلى يعيدنى الى حالة الثرثرة فى ارغام ، فاستطردت أقول : « دكتور مكسويل .. هناك افكار غريبة فى رأسى تتحفز للبروز .. انى اقاومها ، ولكنها تحاول فى عربدة وشدة ان تقتحم خط مقاومتى الاول .. هاهى قد تغلبت على واقتحمت على صمتى .. أريد ملحا . انا مشتاق فى نهم الى امتلاك مليون دولار !. ولكن هذه امنية يجب الا يفكر بها رجل بحالة مثلى .. فما هو رأيك ؟ » . فقال :

ـ دعنى افكر فى الامر معك قليلا .. هل كانت رغبتك هذهقديمة م وليدة بعض الحوادث التى مرت بك فى اليقظة أو احلام اليقظة و احلام الليل ؟..

قلت :

ـ بل كانت مجرد خواطر راودتنى منذ أيام قليلة .. وكانت تلك الخواطر محددة الهدف .. وهو الحصول على ثروة بأى سبيل !

فهز دكتور مكسويل راسه ، وقبل ان يقول شيئا اندفعتاقول :

ـ اننى اشعر بالحسد نحو والدى .. والدى الثرى .. واحسد رئيسى الذى يتمتع بأبهة المنصب ورغد العيش !. لقد قمت بزيارة ذلك الرئيس فى الخريف الماضى .. انه يملك بحيرة خاصة .. يصيد منها الاسماك والطيور المائية هو واصدقاؤه .. انه فى نعمة سابغة ، وسعادة مقيمة !. لقد حلمت .. نعم حلمت ليلة امس بأننى اخترعت آلة لصنع « السوستات » التى تستعمل فى صناعةالحقائب

وحافظات النقود والملابس .. ولكن احدهم سرق هذا الاختراع فاقمت عليه دعوى مطالبا بعشرة ملايين من الدولارات .. ومنذ ذلك الوقت وانا احلم بالثروة طيلة ايام عديدة ..

فعاد دكتور مكسويل الى الحديث قائلا :

ــ احسب انه قد حان الوقت لان تدرك انه فى غير استطاعتك ان تواصل انتاجك كباحث منتج ، اذا كنت تستقطع من وقتك الثمين جزءا كبيرا ، ومن عصير نشاطك قسطا وافرا كرجل اعمال .. الا يدهشك ان تعرف أن هذه ظاهرة دلت على ان عقلك الباطن مشغول بتكوين ثروة بدلا من التبحر فى العلوم التى خلقت لها ؟. ولكن ارجوك ان تستمر .. وسنطرق هذا البحث فيما بعد ..

ان المترابطات فى هذه الجلسة العلاجية الرمزية لها الاسبقيةعلى الحوادث التى تاتى عفو اللحظة فى سياق الحديث الدارج .. وفى هذه الفترة القصيرة نسبيا (ساعة واحدة) كثيرا ماتتغير طبقة الصوت واسلوبه ، فمرة اكون غاضبا فيدوى صوتى صاخبا مرتفعا .. ومرة تتضح فيه مرارة الاسف والحزن او الاستغاثة واستجداء الشفقة .. وقد وضح هذا دكتور مكسويل عندما لخص تحليله فى نهاية الجلسة ..

وكطلب الدكتور مكسويل أخذت اتحدث :

ــ هنا شىء لا اود ان اراه .. اكره النظر اليه .. ان لون طلاء جدران عيادتك يثير فى نفسى الضيق والضجر .. اشعر بتوتر .. اود ان ابارح هذا المكان حالا .. سحقا لاولئك الملاعين فى « ميدل تاون » .. احسب اننى راغب فى الالتحاق بالسلاح البحرى حتى استطيع ان اجوب انشاء العالم

لم تكن هذه الكلمات فى مجموعها ذات معان خاصة .. وانما تكمن اهميتها وراء النغمة الغاضبة الصاخبة التى تشترك فيها .. وهى فى الواقع لم تظهر الا لتمثل شعورى برد الفعل الذى احدثه اقتراح دكتور مكسويل بشان تركى الاهتمام بمسألة المال .. اذ سارعت ــ أو بالاصح سارع شخصى ، وهو فى حالة شـــعور غير مكتمل

«نصف متيقظ» ـ بالاحتجاج على مبضع الطبيب الذى هدد بالكشف عن مكمن أهم الدوافع النفسية التى تهيمن على اعصابى !.

وكلما اوغل التحليل ـ خلال ساعة الجلسة ـ فى الكشف عن مشاعرى كانت كل الافكار التى لدى تتحول بطبيعة الحال عن مجرى حياتى العادية ، وتتخذ وجهة أخرى مفصولة عن هذه الحياة ..

وغالبا ماكنت انتقل الى حالة نصف حالم ونصف نائم حتى اننى كنت اصحو فى انتفاضة وفزع كلما طلب دكتور مكسويل تفسيرا او سأل سؤالا ..

وكانت الاحلام النهارية تراودنى كلما غفوت وانا فى استرخاء على المضجع الجلدى .. وماهى الا صور حوادث وقعت لى فى صباى .. فى طفولتى .. البعض منها قد عفا عليه النسيان ، والبعض الآخر قد كبح ومنع ..

« هانحن هناك الان .. رائحة تربة الارض .. غلمان .. غلمان كثيرون .. وهاهو الصغير « فريدى تشيس » .. لقد احضرناه الى هناك .. اقتلوا هذا المدعى ابن الزنا .. انا لم ارتكب ذنبا .. لم افعل هذه الفعلة .. هذا ما قالت .. استمروا .. اننا راحلون فى الباخرة الساحلية ذات الدواليب .. اوه .. اوه .. كلا .. كلا .. هذا ما قاله هو .. هيا بنا يا اولاد .. ها أنا عند الغدير .. وها هنا مراعى الابقار تكتنف المنطقة .. فى كل جهة .. هاهو رجلك العجوز يستقل سيارته العتيقة ماركة مكسويل .. اين انا ؟ .. هاهوذا مكان مرتفع يصلح للوثوب للغطس بارفاق .. راقبوا « فريدى تشيس » لئلا يشهر المطواة الكبيرة التى معه دائما » ..

وعندما يلخص دكتور مكسويل حوادث كل جلسة تحليل ، يستغرق هذا عادة عشر دقائق ، وفى النادر جدا اكثر من هذا قليلا ولكن غالبا اقل .. ومن عادته أن يقول دائما عندما ينهى جلسته «سنستأنف عملنا غدا » .. وقد اعتاد فى آخر جلسات الاسبوع ان يمنحنى بعضا من الوقت الكافى لاكشف له عن متاعبى ، وعن منابع توترى النفسى .. وقد لاحظت أن العطلات الاسبوعية تمر ثقيلة وطويلة

اثناء التحليل النفسي خصوصا متى كانت الانفعالات فى أوج ضغطها

وكان دكتور مكسويل ـ وهو يدرك مدى تأثير الاضطرابات العنيفة وما تحدثه من ازمات طارئة ـ يحاول جهده ان يجعلنى امسك بصمام الامان فى هذه الدقائق التى يمنحنى اياها فى آخر جلسات الاسبوع حتى يمكننى اخراج بخار الاضطرابات التى تعتمل فى اغوار نفسي قبل ان أدخل راحة العطلة الاسبوعية .. وكان هذا منه تدبيرا حازما ..

وقد لاحظ دكتور مكسويل ان كل افكارى ومشاعرى وانفعالاتى تنحصر فى خواطر متباينة .. تضم الدوافع الجنسية والعدوانية ، والخوف ، والحب ، والكره الممتزج بالحب ، والاشمئزاز ، والرغبة فى الثراء وتفضيل هذه على الابداع العلمى بالعمل فى حقل العلم .. ولاحظ ايضا ان موقفى نحوه قد تحول من موقف محايد لاأون لعواطفه الى موقف ملىء بالكثير من عواطف الكره والغضب والنزوع الى التمرد كما كنت مع ابى اذ اثور على سلطته واتمرد على قسوته وجبروته فيما مضى من ايامى !. وهذه بدت واضحة جلية ـ كما قال دكتور مكسويل ـ فى قولى له : « ان لون طلاء عيادتك يثير فى نفسي الضيق والضجر » .. وقال ان الكثير مما ذكرته من خواطر ، وما كشفت عنه من أسرار حياتى ، ولو جزئيا حتى الان ، قد بدت غريبة .. فائقة الغرابة .. حتى لتحتاج منه الى دراسة عميقة ليصل الى لب هذه الدوافع والانفعالات .

وقال لى : « لقد انتهينا من الاتفاق على ان تترك ذلك الاتجاه المادى او تلهفك على المال لتتفرغ الى بحوثك العلمية .. لايمكن ان تعمل فى حقلين دفعة واحدة وفى آن واحد .. اما اتجاهاتك الطفلية المتصلة بعهد الطفولة ، فهذه وجبة من الطعام لايمكن لمعدتك ان تهضمها .. وهذه حالات يجب ان تصحح .. يجب ان يكون لها وضع آخر .. وانا على يقين من انك تستطيع ذلك لو تعمقت فى نظرتك الى نفسك .. لو عرفت نفسك كما يجب .. وحاولت الحصول على الدليل الذى يكشف لك عن حقيقة هذا الاتجاه العصابى » ..

كان دكتور مكسويل يتخذ هذه الطريقة معى طيلة الشهور الاولى من العلاج النفسى .. وكان يبدو كما لو كان محدود القدرة .. ولكن — كما تبين لى أو ظننت انه تبين — قد تألقت مقدرته فى كبح جماحى عندما تبدو بشائر ثورتى وتمردى عليه وهروبى مما تعلمت .. ولم يكن مع ذلك فظا غليظا ابدا ، بل كان يحمل فى تصرفاته معى كل سمات الصدق والامانة فى رغبة واضحة لمساعدة انسان مثله ..

* * *

الفصل السابع

الأحلام

« ... استرجاع ذكريات مئات
الوجـــوه التى طواها النسيان ،
وآلاف الايـــام آلتى اختفـــت
بالانقراض حتى لتبدو الحياة عجيبة
كالحلم .. »

توماس وولف

عرفت فيما عرفت ان الاحلام كما تقع ـ بطريقة ظهورها الخاصة ـ تنتج مادة فجة « ناقصة النضج » .

عرفت أن « فرويد » قال عن الاحلام انها المنفذ الرئيسي للرغبات التى تكبت عند الاسوياء من الناس .. وهى وسيلة تحقق بعض الرغبات . ومن الممكن ـ عن طريق التحليل النفسى ـ ان يكون هناك توافق بينها وبين الحياة النفسية .. انها لغة يستخدمها « اللاشعور » للتعبير عن نفسه .. وهى وسيلة مما تستعمله الدوافع اللاشعورية لتظفر ببلوغ الشعور المتيقظ ..

فبعد مرور وقت على بدء علاجى النفسى ، تذكرت حلما بدا رائعا واضحا .. ومن العجيب اننى استرجعته فى حين أن من عادتى نسيان مثل هذه الاحلام بعد يقظتى فلا اتذكر منها شيئا ..

وقد اشار على دكتور مكسويل بأن استرجع الحلم دفعة واحدة كأنه قصة ، ثم أسرده عليه فى فقرات موجزة أو طويلة وبعد سرد كل فقرة أو جزء أوضح له كل الافكار المترابطة معها فبدأت اجمع شتات الحلم ، ثم اخذت ارويه بالطريقة التى اشار بها دكتور مكسويل .. دفعة واحدة فى هدوء :

« رأيت جنازة كبيرة .. تمر طويلة فى صفوف متراصة فى الشارع

الرئيسى فى « ميدل تاون » .. أن النعش من الخشب العادى وذو مظهر بسيط .. يحمله فلاحون من المكسيك .. الطرق مكتظة بصفوف الجماهير المحتشدة على الجانبين .. وحين تصل مقدمة الجنازة إلى اول الميدان الرئيسى للبلدة تتجه الى اليسار ناحية الكوبرى الذى تمر القطارات من تحته .. وانا اراقب احتفال الجنازة من الناحية الجانبية .. من ممر جانبى .. وقد أطلق احد المكسيكيين طلقة مسدس فى الهواء .. » ثم أخذت اسرده فى فقرات :

« جنازة كبرى .. تمر طويلة فى صفوف متراصة فى الطريق الرئيسى فى .. فى « ميدل تاون » ..

« اوه .. ابى .. ابى .. امى .. كوبرى . انا تائه . تعالى إلى اماه الحبيبة .. لقد استرجعت ذكرى الكوبرى .. انا الان أفكر فى ذلك الوقت الذى ضللت فيه وعمرى أربع سنوات .. ووجدونى فى هذا المكان بالضبط .. عند الكوبرى اطل على القطارات التى تمر من تحته .. النفق .. ثم المراحيض .. مزلقان تقاطع « شارع البرتقال » وشارع « شجر الاسفندان » .. أن الطريق يصعب ارتقاؤه لانه شديد الانحدار كالجرف .. ابى مات .. وذهب »

كان هناك « ترابط » فى الجزء الاول من الحلم .. وكذلك فى الجزء الذى فيه اطلق احد المكسيكيين طلقة من مسدسه فى الهواء :

« غلام هائم على وجهه فى الطريق الزراعى .. الاب يقود سيارته .. لماذا بحق جهنم لا يأخذه العجوز فى سيارته ويعودبه الى البيت؟! غلام آخر بحجر .. انه ذاهب الى منزل ذويه .. فى الجهة المقابلة .. لماذا بحق جهنم لم يأخذه العجوز فى سيارته ويعود به الى البيت؟! قال ان هذا عقاب له حتى لايعود الى الشجار مرة أخرى .. ان اسرة « كامنسكى » .. وهى أسرتنا .. اناس ادعياء أغبياء .. هذا ما قاله العجوز !.. ضربنى بقبضة يده فى انفى حين عاد للبيت .. سال الدم من انفى .. لقد حبست فى مخزن .. الاب .. البلطة .. اورمة قطع اللحوم .. »

ان الحلم جلى واضح معناه : اننى اتمنى موت ابى !. وقد ظهرت

جنازته فى الحلم .. وقد يبدو هذا مستغربا .. رغبة شاذة تدل على العقوق ، اذ كيف اتمنى موته وانا بعيد عنه ولا اراه الا نادرا بعد ان انفصلت عنه وانا فى سن الثلاثين ؟! من المؤكد ان عقلى الواعى خلو من اية رغبة او ثمن لقتل والدى !

ولما صارحت دكتور مكسويل بهذه الافكار العجيبة الشاذة .. ذكرنى بأن الاحلام غالبا ما تستعيد امامنا رغبات وحوادث منسية لايتذكرها العقل الواعى .

اما بقية معالم الحلم فقد كانت واضحة غير مطموسة . لقد ظهر فيها الامتزاج العجيب بين بلدة « ميدل تاون » و « مكسيكو » .. لاننى فى العام الماضى قمت برحلة فى السيارة عبر المكسيك ، ومن سوء الحظ كدت وانا ادور فى احد منعطفات الطريق أن اقتحم جنازة احد الفلاحين وانا فى سرعة جنونية لاتتفق ونظم القيادة .. وكما ظهر فى الحلم ، كان الفلاحون يحملون النعش على اكتافهم .. ولما وجدت نفسى اكاد اداهمهم دون توقع ، امتدت يدى آليا الى بوق السيارة اطلقه فى انزعاج لامنع حدوث حادث .. فلما واجهت جمهور المشيعين انبرى لى احدهم واطلق طلقة فى الهواء وهو فى اشد غضبه ، فاعتورنى رعب شديد ، وخشيت أن تكون الطلقة الثانية على مباشرة ، فلم اقف وواصلت اندفاعى .. ولكن لما ادركت اننى تسببت فى ربكة جنازة وددت ان اهبط من السيارة كى أعتذر عن تصرفى هذا الذى لم اكن اقصده .. ولكنى من سوء الحظ كنت لا احسن التعبير باللغة المكسيكية ، او بالاصح الاسبانية ، ولذا قررت الا اهبط من السيارة واستمر فى السير لان فى هذا سلامة لى رغم اننى كنت اشعر بالذنب والخجل !

وهذه الحادثة الجديدة فى « مكسيكو » قد اطلقت قطار مترابطاتى النفسية ــ اعادت الى عقلى ذكريات الماضى .. ذكريات الطفولة .. « غلام يسيل الدم من جرح قاطع فى فروة الرأس » . وما الى ذلك .. ان الحلم جرف من القاع ــ قاع ذاكرتى ــ حادثة منسية وقعت ذات يوم احد خرجت فيه الاسرة للتنزه .. فى سيارة أبى .. وان

انسى لايمكن ابدا ان انسى ما اظهره ابى من قسوة وعدم اكتراث نحو ذلك الغلام ..

وقد استطاع دكتور مكسويل بما له من خبرة فذة ومهارة فائقة ان يزيدنى معرفة بنفسى بمساعدته لى عن طريق تفسير هذا الحلم وتطبيق وقائعه بطريقة منطقية ودراية كافية .. فسأل :

ـ هل اسالة الدم من الانف ذكرتك بشيء ما ؟. هل يمكن ان يشير هذا الى نزيف قرحة المعدة الداخلى الذى تعانى منه ؟

وفى اليوم التالى أخذت اعالج التفكير فى الحلم مرة اخرى .. وخطر ببالى ان اساس كل ذلك هو الموت لامحالة .. وتبين لى فجأة كيف كنت فى حالة من الرعب شديدة وانا فى سن الرابعة عندما تركت امى فى حانوت البقالة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى وجدت نفسى وحيدا أقف مطلا على نفق السكة الحديدية متفرجا على القطارات وهى تمر !. وكذلك تذكرت حالتى وانا منقول على سيارة الاسعاف الى المستشفى لاعالج من نزيف القرحة ..

وذكرت لدكتور مكسويل شدة خوفى من الموت .. فقال لى فى بساطة :

ـ فى كثير من الحالات يستطيع التحليل النفسى تخفيف وطأة المشاعر القاسية المؤلمة خلال مدة العلاج تدريجيا .. اذ يعمل العلاج فى صبر على معالجة الانفعالات المؤلمة .. وعندما يتم هذا ستحس حتما بأن شعورك نحو الموت وخوفك منه قد قل كثيرا .. وأرجو من كل قلبى أن يكون الحال كذلك .

وبعد عامين ، وقد قربت من نهاية العلاج ، عدت أفكر مرة أخرى فى الجنازة المكسيكية التى صورها لى الحلم .. فى الافكار المتصلة بالدماء والاصابة فى فروة الراس .. استرجعت أفكارا قديمة .. ذكريات عن ختانى وانا طفل فى اليوم الثامن من عمرى .. وقد حضر الحفل جميع أقربائنا واصدقاء الاسرة تقريبا .. كانت « عمليـة الختان » بسيطة لم يستغرق الالم الناشيء عنها اكثر من بضع دقائق .. اما ازعاج الطفل بالاصوات العجيبة والضجة التى يحدثها المهنئون

فهذه كانت تستغرق ـ كما عرفت فيما بعد عندما كبرت ووعيت ـ ساعة او اكثر .. والطفل لايفهم من أسرار الدنيا الا الامان الذى يجده فوق صدر أمه وفى صوتها الحنون .. وفى اعتقادى ان هذه عملية فيها ضراوة ولا فائدة منها لحياة المخلوق الصغير البرىء .. وقد وافقنى دكتور مكسويل على هذا الرأى ..

وهناك حلم اثبت بالدليل مرة أخرى كيف ان المرء يمكنه ان يفيد من احلامه عندما يطلقها على سجيتها دون ان يحاول اخضاعها لمشيئته .. فرويت لدكتور مكسويل حلما يبدو انه كان سارا لطيفا عندما كنت أتمتع بحوادثه وانا فى سبات عميق .. قلت :

ـ رأيت أنى اسير فى احد الطرق ، وقد قابلت دكتور « لوتون » وهو أحد أساتذتى فى دراسة الكيمياء بجامعة « ميدل وسترن » ... وقد توقف كل منا ليحيى الآخر بهز يده فى حرارة وصداقة .. ثم مضينا بعد حديث قصير » ..

لقد كانت هناك مشابهة عجيبة فى ملامح الوجه وفى الحالة الجسدية بينه وبين أبى .. وقد عبر الحلم عن حديث ودى مع والدى .. أى انه عبر عن رغبتى فى عودة المياه الى مجاريها مع ابى .. عودة المحبة بين والد وولده .. ويظهر أن الحلم كان يعبر بقوله ــ على لسانى ــ « أود ان يكون والدى رجلا مهذبا مثقفا .. وأستاذا محبوبا من طلبته ومن الناس بدلا من أن يكون رجلا مليئا بالعدوان ، والفظاظة كرجل أعمال » .. وعلى كل حال كانت تأويلات هذا الحلم مناقضة تماما لما كان يجول فى خاطرى من افكار مترابطة ظهرت فى الجزء الثانى من الحلم !.

ان مجموعة هذه الافكار المترابطة فى شبه خواطر دلت على ان

« توقف كل منا ليحيى الآخر بهز يده فى حرارة وصداقة ... اشعر برغبة ملحة فى أن أضربه فى وجهه .. وانزع ذراعه .. واطرحه أرضا !. »

الدوافع التى وراء هذا الحلم هى بواعث عدائية وليست بواعث فيها مودة او صداقة ... انها ضروب نفسية من الكره والمقت ... ان

دوافعي العدوانية كانت مقنعة بالعمل اللطيف ، والتصرف الرقيق بهزاليد في مودة وحرارة ... والحقيقة أن عقلي « نصف الواعي » كاد يدفعني الى نزع ذراع البروفيسور من جسمه لانه كان يشبه والدي ويمثله !. وغالبا ما يجد المرء في الاحلام ما يكون سجيةبديلة تخفي وراءها المعنى الحقيقي ... وهنا مرة اخرى ظهر في هذا الحلم « البرهان البديل » على عمق أغوار تلك المشاعر العدائية التي كنت ـ الى حد بعيد ـ أشعر بها نحو والدي في قرارة نفسي!.

وبعض الاحلام قد يكون فيها كنز من المترابطات والتأويلات التي من شأنها ان تساعد على المضي قدما في السلوك العلاجي .. ان الاحلام من غير شك كما قال بعض العلماء النفسيين ، لها دلالة بيولوجية في حل مشكلات الحياة خصوصا في الحالات التي يكون فيها المرء في موقف المناجز للافكار الحرة ...

وقد رأى دكتور مكسويل أول مارأى أن اروى له الحلم كاملا كما يرد على ذهني دون تحرج ، ثم أقسمه الى اجزاء ، وعليه هو الباقي في تناول كل جزء على حدة وتحليله وتأويله مستعينا بسؤالي وأنا في حالة التداعي الحر .. وبذا يستطيع أن ينفذ الى باطنه ..

وها هو ذا حلم آخر :

« حلمت انني وسط جماعة من المحكوم عليهم بالاعدام ... وكان منفذ الحكم شخصا اعرفه .. فابتسم الى ورفع بندقيته.. فتقدمت خطوة الى الامام .. فقال متسائلا « ألست أنت الاخير ؟ » فتجاهلت سؤاله وقلت « صوب جيدا » .. واطلق النار فكان الطلق واطئا .. فأنزل بندقيته .. ولما رفعها الى كتفه مرة اخرى صوب فوهتها نحو صدري وأطلقها .. وشعرت برصاصة تنفذ الى قلبي .. فاستيقظت مرعوبا متوتر الاعصاب » ...

وتنفيذا للروتين الموضوع ، أخذت أقسم الحلم الى اجزاء صغيرة مترابطة ببعض مع بعض فكانت :

« انا ضمن جماعة من المحكوم عليهم بالاعدام » ..

« جيك بليك .. طبيب اسنان في « ميدل تاون » .. يتكلم عن طب

الاسنان .. جياد .. مخزن غلال .. نبات .. طلق نارى صادر من الدور العلوى لمخزن الدريس .. قصة رجل نفذت مذراة فى صدره كانت مختفية داخل الدريس .. فشعرت بتوتر نفسى وعصبية » ..
« كان منفذ الحكم شخصا اعرفه.. فابتسم لى ورفع بندقيته.. »

« توم بليك .. « ميك فيليبس » .. مدينة كنساس .. ابن عمى بول .. لعنة الله عليه .. أنا لم أسرق اى شىء .. هو الذى سرق بعض الاشياء من محل بقالة .. مخزن مبيعات.. والنساء تعصر الفاكهة » .

« تقدمت خطوة الى الامام .. فقال متسائلا : « الست انت الآخير ؟ »

« أنا أقود العصابة فى « ميدل تاون » على مقربة من المدرسة .. « ميك كاسيدى » يبرز من صف الخصوم .. نتقدم نحوه .. انه عدونا سألكمه فى أسنانه .. انظروا .. ان طبقة الثلوج تتحطم فى بركة المياه المتجمدة .. سنتخذها ملعبا للتزحلق »

« تجاهلت سؤاله وقلت : صوب جيدا .. واطلق النار فكان الطلق واطئا .. فأنزل بندقيته .. ولما رفعها الى كتفه مرة اخرى صوب فوهتها نحو صدرى واطلقها على .. »

« أنا زعيم عصابة فى المدرسة .. عصابة قليلة العدد تعادى عصابة كبيرة العدد ولكنى اتحدى القوم بشجاعة .. اطلق النار على اذا استطعت ..

« شعرت برصاصة تنفذ الى قلبى .. فاستيقظت مرعوبا متوتر الاعصاب »

« رأس دامية .. أبى .. ان الغلام فى « ميدل تاون » كان يخترق الطريق .. لماذا لا تسعفه ؟. ضربنى بقطعة من حجر الاردواز » .

فسألنى دكتور مكسويل :

ــ ما معنى ذلك بالنسبة لك ؟. اى شىء فيه يتصل بك ؟.

فأجبت :

ــ ان فيه الكثير من القلق والجزع والضجر والهم ..وكذا الكثير عن طور طفولتى .. ولا شك انه ما زالت هناك بعض المعالم التى عاصرت

طفولتى .. وهذا الحلم يكشف كذلك عن حالتى النفسية وعن الرعب الذى ما زال يكتنفها ، وهو رعب قديم عاصر طفولتى وما زالت متاعبه مصدر هم وجزع لى ..

« أنا أعرف اننى أبذل الجهد فى مقارعة تلك الهموم والمتاعب لافلت منها .. وأنه ينبغى عليه أن اعيش فى الحاضر ولا أعيش فى الماضى الا بمقدار .. مقـدار ضئيل .. وبلدة « ميدل تاون » يجب ألا يكون اتصالها بحاضرى من ناحية الالفة والمودة كمـا هى الحال فى علاقة مخاوفى بهذا الحاضر .. كما يبدو .. »

فوافق دكتور مكسويل على ما قلت وزاد عليه قائلا :

ـ ليس الخوف هو لب المشكلة البادية فى الحلم .. لان الخـوف لم يبد أثرهما الا فى هذا الوقت الحديث .. وانت غالبا تبدو غاضبا مضطربا لاننا نقترب من عطلة الصيف .. اذ ربما تملك الخوف نفسك خشية ان يكون التوقف عن العلاج شهرين سببا فى جماح الجزع فى نفسك أو معاودة عوارض قرحة المعدة التى تشكو منها .. ولكنى أصارحك بأن شيئا من هذا لن يحدث ..

فكان هذا التشجيع يبدو معقولا مطمئنا ..

وعاد دكتور مكسويل يقول لى :

ـ وعلاوة على ظاهرة الخوف أو مشكلة الخوف التى تبدو لك رأس موضوعك ، فهناك عنصر أساسى لظاهرة الخصومة والعـداء التى تظهر جليا فى هذا الحلم . ان هذا العنصر جزء من شخصية عادية ، ولكنها شخصية غير معروفة عنك .. وهى التى لعبت دور الجـلاد منفذ حكم الاعدام فيك !.. انه اطلق الرصاص عليك .. وأنا لا أدهش اذ أتصور ان الوضع عكسى ، وأن الرغبة على الضد .. انت منفذ حكم الاعـدام !. وانت تطلق الرصـاص .. على أنا ! فتقتلنى لاننى مفارقك لمدة شهرين فى عطلة صيفية !.. وربما تذكرت أنك منذ أيام كنت فى مخزن للسـلاح والمهمـات الرياضية ، حيث كنت تشترى بندقية .. ثم تكلمت عنى وعن أجازتى الصيفية ، وسألتنى عما اذا كنت قد تمتعت بقنص الطيور وصيد الاسماك ...

ان هذا الحلم أفادنى كثيرا لانه ساعدنى على تفهم العديد من المشاكل التى تأخذ بعنقى .. وأهم درس جديد تلقيته هو تأثرى العميق لهذا الفراق الذى سيطول شهرين ويبعدنى عن دكتور مكسويل اثناء العطلة .. وهذا من شأنه أن يرينى اشارات الخطر

.. اشارات الرعب والجزع .. فلم أتريث وأفضيت بمخاوفى اليه فور شعورى بها ، قبل حدوث هذا الفراق ببضع ساعات !.. وقد مرت عطلة الصيف على ما يرام ، بل أحسن مما كان يتوقع أو يرجو .. وهذا راجع ـ ربما ـ لان دكتور مكسويل وانا قد انذرتنا الاحلام والافكار المتضمنة فيها .

وكثيرا ما كنت أتذكر جزءا من حلم .. فكان دكتور مكسويل يحثنى على ان احاول الجمع بين أجزاء الحلم فى ترابط ، املا فى العثور على العنصر أو المادة المهمة بينها .. وفى غمار هذا الغموض ربما كان فى استطاعتى أن أكشف عن معالم حلم كاد ينسى .. وقد حدث هذا .. فتذكرت الحلم التالى :

« حادث غرق .. كنت اشعر بتوتر شديد بلغ حد الاختناق .. انا احاول استرجاع الوقت الذى كدت فيه أن أغرق فى النهرالقريب من « ميدل تاون » .. لقد هبطت الى القاع مرتين .. أشعر بذلك الآن كما لو كان قد وقع توا .. فصرخت طالبا النجدة .. لم تخرج الصرخة من فمى لانه كان مليئا بالماء .. فلم استطع الكلام .. وتذكرت المحاولة اليائسة التى بذلتها للوصول الى الشاطىء .. والرعب الشديد الذى شملنى لاننى خشيت أن أفشل فى محاولتى » ..

وقد اراد دكتور مكسويل ان يعرف هل هذه الحادثة المرعبة التى وقعت لى وانا فى سن العاشرة قد سببت لى رد فعل نحو السباحة وغيرها من الرياضات المائية ، فأسرعت لاقول له مؤكدا انها لم تؤثر مطلقا فى مشاعرى ، ولم تحدث أى فرق ولو طفيفا .. لقد كنت دائما سباحا جريئا من « عفاريت الماء » فى المسافات الطويلة ، وفى الغطس من علو شاهق .. ولكن فى الوقت نفسه ، فى نفس اللحظة التى اقول فيها هذا للدكتور مكسويل ، طرأ على ذهنى اننى أكذب ! .. لقد

كنت فى الواقع شديد الرعب وأنا فى الماء أناضل لادفع عن نفسى الغرق ومنذ تلك اللحظات الرهيبة التى حدثت لى وانا غلام فى العاشرة، ما زلت أشعر بتوتر فى اعصابى لايفارقنى ابدا .. نعم لم اظفر بلحظة استرخاء بعد تلك الحادثة التى كان موتى غرقا وقتها على قاب قوسين أو ادنى

وبعد نقاش هذه الاحلام تعلمت تدريجيا أن أكون سباحا ماهرا .. فى أول الامر قريبا من الشاطىء ، ثم تدرجت الى بلوغ مكانة رفيعة فى السباحة والتجذيف بطريقة فنية سليمة .. لقد كان الفضل فى ذلك الى الجزء الصغير من الحلم الذى فسره دكتور مكسويل ... وقد حل مشكلة خوفى من الغرق ، وهو الشعور الذى لازمنى طويلا .. وبعد ذلك كان فى استطاعتى أن أتمتع بسرور حقيقى يمكن للسباحة المريحة المسترخية أن تحققه للانسان .

وفى اعتقادى أن الحلم القصير المتقطع ربما كان أكثر فائدة من الحلم الطويل من الناحية النفسية .. ومع ذلك فها هو حلم طويل تذكرت حوادثه التى استرجعتها من الماضى القريب :

« انا راقد فى فراشى وبجانبى فتاة صديقة اسمها « آنا » .. وكان ضوء النهار ينفذ خلال سجاف النافذة المفتوحة ، واذا بى اسمع صوت سيارة تقف بجوار البيت ، ثم ارى ابى وأمى وأخى يهبطون منها فأثب من الفراش بسرعة لاختفى فى غرفة متصلة بغرفة النوم، ولكن اخى كان اسرع منى ، فرأيته امامى وأنا فى طريقى الى الهرب .. فيحمر وجهه من الخجل ، ولكنه يخفف عنى بقوله ان والدى لم يريانى ولا يعرفان الفتاة التى معى .. والتقيت بأبى وامى فى القاعة الاخرى فى حالة طبيعية ، وأخذت أرحب بهما وأمزح .. وقدمت لهما « آنا » التى كانت تبدو منزعجة فى بادى الامر ، ثم ما لبثت ان تمالكت جأشها وهدأ روعها ، بعد أن كانت غاضبة مضطربة .. ثم انفصلت بعد ذلك عن اشخاص الحلم ...

« ودار نقاش بيننا عند عودتى الى البيت بعد القطيعة ، وهذا سبب حضورهم الى بيتى ، ولكن لم ينته الامر الى قرار حاسم

للعودة معهم فى السيارة فى تلك الليلة.. لقد اخرت الميعاد .. وتحادثنا قليلا ، ثم ودعتهم حتى الباب .. وبعد ذلك رأيت عمى وعمتى على بعد قليل مؤملين نقلهما فى السيارة الى « ميدل تاون » .. وهنا رأيت رجلا يصحب أمى ، وهو رجل قزم لم أعرف من هو ! انه يشبه « لاجوارديا » وملتحف بكفن من اكفان الموتى !.. وبينما يهمون بالانصراف ، خرجت « آنا » مندفعة من البيت .. وأخذنا نتكلم جميعا .. ولم تكن تبدو على أيهم حيرة او ارتباك ، اذ كانوا يعتبرونها واحدة من الاسرة ... وليست احدى العاهرات ... ثم انصرفت الاسرة ..

« وبعد انصرافهم أخذت أتناقش مع « آنا لأ فيما تنتويه .. فاقترحت ان نرتدى ملابسنا ونخرج لنزهة قصيرة سيرا على الاقدام ، ثم نعود وقالت : « سنكون قد عدنا الى حالتنا الطبيعية بعد هذه النزهة » ..

وقد امتزج هذا الحلم الطويل الغنى بمناظره ، بكثير من المترابطات المختلفة .. مجموعة من الخواطر المتباينة .. لم بر فيها دكتور مكسويل ولا أنا أية نماذج تستحق الاهتمام .. وقد تعلمت من هذه الخبرة النفسية وغيرها أن طول الحلم لا يدل حتما على انه مهم ..

ان الاحلام غالبا ماكانت تقودنى الى التعرف على مايزعجنى ويشغل بالى أسرع مما يتأتى عن طريق الخواطر المترابطة الحرة التى تمون العقل « نصف الواعى » بذكريات الطفولة .. والقليل من هذه المترابطات يشير مباشرة (فى المثل الآتى) الى ذكريات مسترجعة من عهد الطفولة وبل الفراش !..

« انا جالس على مبولة عالية لقضاء الحاجة .. لقد بللت خشب المبولة وتسبب الماء فى اصابة ملابسى الداخلية بالبلل .. فأخذت فى تغيير هذه الملابس .. وعندما خلعت سراويلى تبين لى اننى البس جوارب حريرية طويلة !.. »

لقد زودتنى الاحلام ايضا أنا ودكتور مكسويل بما كان يكشف لنا عن حالات التوتر النفسية وهى قابعة فى أغوار العقل « قبل

الشعورى »

وكنت قبل التحليل النفسى فريسة سهلة للكابوس مرة او مرتين فى الشهر .. وكثيرا ما سببت لى تلك « الكوابيس » الملعونة انزعاجا فكنت أصحو من نومى مرعوبا صارخا !. على أن هـذه الاحلام المزعجة ندر ان تراودنى فى اول عهدى بالتحليل .. فى العام الاول.. ومن ثم فارقتنى الى غير رجعة خلال العام الثانى من بدء التحليل!..

ولكن علاوة على تخفيف هذه المزعجات المرعبة ، كانت الاحلام دليلا على مدى تقدم التحليل النفسى وظهور ثمرته .. فمثلا حلمت فى العام الثانى من بدء التحليل ، أننى اصطحبت واحدا من أولاد أخى للتنزه فى حديقة الحيوان .. وقد ظهر أثناء الحلم اننى كنت فى أوج سعادتى وسرورى وقد كنت أجيب عن أسئلة الطفل وأشبع نهم فضوله الصبيانى فى أبتسام وغبطة ..

فقال دكتور مكسويل : « ان حلمك هذا هيأ حالة وجدت فيها غبطة حقيقية وانت بعيد عن جو عملك .. فمن الصواب اذن أن تغتنم من وقت فراغك ما يمكن أن تظفر به من الوقت ، على الا يتعارض مع وقت جلسات التحليل ، ويكون مبكرا عنها .. وأعتقد ان هذه « علامة » على تقدم حقيقى نحو حياة انفعالية أفضل من ذى قبل .

* * *

الفصل الثامن

الرجل الذى خلف المضجع

« لقد استسلم اليها فى خضوع
تام .. وأرهف سمعه فى اصغاءة
تامة ليستطيع التقاط صوتها
الخافت الآتى من مكان سحيق »
داى اويس

يخيل الى أن العقبة الكبرى فى قبول التحليل النفسى عن رضاء تام ودون تردد او معارضة ، هى المقاومة المتأصلة فى النفس ، والتى ترفض فى تمرد ان تكون حياة الفرد تحت رحمة غريب !..

ان المحلل النفسى ينظر اليه دائما فى أول الامر ، على انه غريب لان الواقع المعروف ان المحلل النفسى لايقبل علاج صديق او قريب..

وهذا السبب هو منشأ المتاعب .. ولب المشكلة .. أما أنا فقد أدركت أن ليس من السهل على أن استلقى فوق مضجع المحلل النفسى وأسمح له كشخص غريب عنى ، بان يصل الى الصميم من أسرارى ...

ان الاشباح الدفينة التى تداعب الخيال كرغبات جنسية ، او نزعات مجرمة ، أو دوافع شريرة تهدف الى القتل ، كانت وستظل الى الابد من المسائل الخاصة التى يحيطها الكثيرون منا بسرية تامة .. اننا نخفى هذه الدوافع الوجدانية ليس فقط عن اصدقائنا ومعارفنا وأقربائنا ، بل عن انفسنا .. ومع ذلك فعندما نكون فى عيادة المحلل النفسى فالمفروض ان نكشف الغطاء عنها كلها فى ايضاح تام !..

ان المحلل النفسى يعرف ما هى الشهوة الانسانية .. وما هى الدوافع الاجرامية .. وارتكاب الفحشاء فى المحرمات ، وما هو الجرم العظيم الذى تسببه هذه الدوافع الناقصة غير المكتملة !.

فمهمة المحلل النفسى هو ان يعلم المريض كيف يتفهم الموقف تماما ، ويستطيع ان يطرد نزهة الاجرام التى لا لزوم لها ، وبهذا يحول مجرى الاتجاهات او يخمدها ، او يخنقها فى مهدها بكبح جماحها وتحويل نشاطها الى الطريق الصحى النافع ..

فلما تكشفت لى هذه الحقائق وجدت من السهل على ان اقبل ـ من جانب واحد ـ العلاقة بالدكتور مكسويل .. وقد استطاع هو بالتدريج ان يجعلنى ادرك اننى لم أكن قط « مشكلة شاذة » منفردة ، او خارجا على المجموع .. ولكن الناس .. كل الناس .. حتى العاديين منهم .. لا تمر بهم مثل هذه المشاكل دون صراع مر معها ...

واعتقادى الشخصى أن ضغط « المركبات النفسية » كان دائما يقلل ويضعف من قوة احتمال الوسائل الدفاعية ، وكان الدكتور مكسويل يعمل جاهداً على أن يقلل من قوة الدوافع المتصارعة ، ويقوى المؤثرات العقلية .

وقد كان المتفق عليه بيننا ان تكون فترة التجربة ستة اسابيع .. فلما أوشكت ان تنتهى قال لى دكتور مكسويل :

« لقد اتفقنا على ان تكون مدة التجربة ستة أسابيع ، وبعدها نقرر ما اذا كان العلاج لا بد أن تطول فترته ام لا .. وقد كنت افكر فى هذا الامر حذرا .. وكذلك دكتور « جولد شميدت » ، الذى كان من الطيبة بحيث اتصل بى منذ أيام قلائل ، وسألنى عن الحالة اجمالا ، وعن قرحة المعدة بصفة خاصة ، فكانت اجابتى بأننى انصح ـ رغم تحسن الحالة ـ بالاستمرار فى العلاج الشامل ، لان الضرورة تقضى بذلك .. وأننى أن احدد مدة ... فوافق دكتور شميدت على هذا الرأى وطلب الى ان اخبرك »

وكنت أرجو ان يقول لى دكتور مكسويل بالا حاجة بى الى تحليل شامل بعد تلك المدة التى انقضت ، وهى مدة مؤلمة مكلفة . ولكنه لم يفعل الا العكس !. رغم هذا شعرت فى قرارة نفسى بأنه كان على حق فى هذه التوصية .. لقد رأيت عن كثب ما فيه الكفاية خلال

هذه الاسابيع الستة فوق المضجع .. ادركت ان ذلك الوحش القابع فى أغوارى هو الذى يحرك قرحة معدتى ، كما انه هو الذى يتولى تحريك سلسلة انزعاجى ، وقلقى فى نوبات متلاحقة من الانفعالات، والاضطرابات !..

واستمر علاجى ، وأخذت المضايقات تتوالى نفسيا وماديا ، ولكن الحق يقال اننى كنت أشعر ببعض التحسن .. وفى جلسة شعرت انها طالت اكثر من اللازم — وهذا غير الواقع مؤكدا — خرجت من مدار ثرثرتى لاقول فى شبه توسل :

« انا اخشى مجرد الفكرة بانك راحل يا دكتور مكسويل .. أريد أن أبقى بجوارك .. فكرة سفرك فى عطلة الصيف تفعم نفسى بالغضب .. ولو انى أعرف كم انت فى حاجة الى راحة بعد العناء الذى تلقاه طيلة شهور العمل الطويلة .. ألا يمكننى الحصول على اجازة لاقضيها فى نفس المصيف الذى ستذهب اليه وبذا استطيع الاستمرار فى العلاج ؟ » .

كانت هذه نقطة تحول تعمل فى مظهر آخر من مظاهر العلاقة بين المريض والمحلل . وكما هو ظاهر من هذه الخواطر المترابطة ، لقد انتقلت الى محيط آخر هو محيط « الطفل — الأم » وهو طور من أطوار التحليل النفسى يشير الى رغبتى فى الاعتماد على دكتور مكسويل ليرعانى كما ترعى الأم طفلها ..

ولما وصلت اخيراً فى تقدمى التحليلى الى نقطة يستطيع المرء منها التحدث منطلقا فى حرية تامة عن كل ما يدور فى رأسه ، كان على أن استمر فى هذا الانطلاق الى مدى بعيد قبل ان تكون لى الحرية الكاملة فى التعبير عن خواطرى .. وحتى بعد مرور أسابيع كثيرة مع دكتور مكسويل، لبثت اقوم بدور الرقيب ، وأمر بقلمى على خواطر معينة لا استبعدها من صفحة حالتى الشعورية ، حيث كانت طافية ظاهرة .. ويظهر انها كانت من التفاهة بحيث لا تستحق أن تذكر..

« انى استرجع الآن وأفكر فى ذكرى بعيدة .. لقد كنت فى عطلة صيفية عندما كان عمرى اثنى عشر عاما . وكان برفقتى صديق

اقترض منى بعض المال .. ان ذلك الغلام الملعون ما زال مدينا لى بخمســة ريالات !. انا غاضب .. يا لجهنم !.. ان ذلك المدعى لم يهتم حتى بالرد على خطابى !. اننى اشعر بانزعاج ازاء هذه الحادثة التى مر عليها قرابة عشرين عاما ! »

لقد تبين لى فى وضوح أن دكتور مكسويل يرحب بكل المشاعر الصادقة العــدائية التي تروي له ــ حتى ولو كانت موجهة اليــه شخصيا ومباشرة ــ ولم استطع أن أتبين ذلك الا بعد وقت طويل .. ففى الاسابيع الاولى من العلاج تركت جانبا مشاعر وأفكار على انها غير ملائمة ، ولكن ظهر فيما بعد أنها على جانب كبير من الاهمية، اذ ساعدتنى على تحديد معالم الطريق فى تحسن حالتى بهذا العلاج البطىء الحذر ..

لقد بذلت مجهودا جبارا لأعبر بالالفاظ عن خواطرى المترابطة الآتية ..

كنت ارتجف واعصابى تختلج فى شدة ، والعرق يغمرنى ؛ ولكنها خرجت من فمى اخيرا :

« انى فى حالة توتر عصبى مروعة يا دكتور مكسويل .. انى اكره ان اقول هذا الذى اود ان اقوله .. ولكنى اشعر بأن هنــاك فكرة تحيط بى وتدير رأسى .. فكرة تضيق على الخناق وهى اننى راغب اشد رغبة فى صرعك !.. شديد الرغبة فى طرحك ارضا !. » .

لشد ما شعرت براحة البال عندما سمعت دكتور مكسويل يقول بأسلوبه الناعم الرقيق : « لقد فادك هذا القول الذاى كنت تكبته وتخشى ان تبوح به .. ولكنك الآن فعلت كما يفعل الطبيب المعالج بامتصاص السم من الجرح.. لقد فجرت دمل انفعالاتك ، واخرجت السم منه .. ألم يخطر لك على بال ان من المعقــول أن يكون هــذا الكبح الزائد المفرط قد أزال بعض اغشيــة معدتك كما يزيل عمال « الرشمة » الصدأ عن الحديد ، فسبب قرحة المعدة ؟. » .

وكنت على استعداد من جانبى لان اقرر مذعنا بأن مثل هذه النوبات من القلق والحصر ، وما يتخذ حيالها من كبت أو كبح من

شأنها ان تسبب اى نوع من المرض !.. وحتى اللحظة التى اخرجت فيها تلك الكلمات التى قلتها لدكتور مكسويل ، كنت أشعر بتوتر شديد فى أعصابى ، وضيق خانق حتى ظننت أننى سأصاب بذبحة صدرية ، او ضربة من ضربات ضغط الدم !..

ومرت الايام ، ودكتور مكسويل يكشف عن براعة مذهلة ... لقد تبين لى أن المحلل النفسى البارع يستطيع أن يكون لاعب « بوكر » ممتازا .. يعرف كل ما يحدث اثناء اللعب ،ولكن لا يمكن أن ينم وجهه او صوته عن ذلك !..

« لقد استسلم الى اللعبة فى خضوع تام ... وأرهف سمعه فى اصغاءة تامة ليتمكن من التقاط صوتها الخافت الآتى من مكان سحيق » !..

* * *

الفصل التاسع

ذكريات قديمة

« قد نعثر على القليل من ذكرياتنا الماضية لان معين تلك الذكريات اشبه بمخزن دواء او معمل كيمائى ، والصدفة فقط هى التى ترشد ايدينا الى مانبحث عنه »

مارسل بروست

ان بعض التجارب النفسية المذهلة التى يثيرها التحليل النفسى تنشأ عادة بعد اماطة اللثام عن ذكريات محددة المكان والزمان قد أصبحت فى زوايا النسيان .. والوقائع المخفاة منذ الطفولة المبكرة، تعود ساطعة الى العقل فى صفاء ناصع .. كذلك الحوادث العارضة التى وقعت منذ مرحلة المراهقة حتى مرحلة النضج تعود فجأة فى اشرق .

ويتبين هذا مما رويته لدكتور مكسويل وأنا فى حالة استرخاء :

ـ دكتور مكسويل .. ان من ذكرياتى المسترجعة صورة زاهية واضحة المعالم عن صندوق .. علبة .. تفتح .. فتثب منها أفعى كريهة رقطاء ذات لون اخضر يميل الى الصفرة .. يتبين لى انها ثعبان مصنوع من القماش المحشو مثبت فى زنبرك .. وهى لعبة للمزاح الثقيل .. انى اراها الآن ظاهرة فى وضوح .. فى صالون البيت الذى ولدت فيه .. وكنت وقتئذ على الارجح .. فى الرابعة من عمرى .. او ربما اقل قليلا .. كانت لدى وقتذاك رغبة فى أن ازحف على بطنى فوق ارضية القاعة كما لو كنت امثل دورا هزليا سخيفا فى مسرحية انتقادية .. انى ارى القاعة مشرقة الضوء .. هناك مصباح كهربائى بغطاء اطاره من الخرز .. ومضجع طبى ..

جسم بلورى يعكس صورا وراءه ، فيخيل الى اننى ارى منظر قصر الفاتيكان .. ثم منظرا آخر لبرج ايفل .. ثم قاعة الطعام .. وفى الوسط مائدة طعام ثقيلة مرصوص عليها كؤوس وطاسات من الزجاج السميك ، وفناجين من الخزف .. وصورة لطائر مائت مخضب الريش بالدماء .. وأرضية مكيفة الجوانب بالهواء الحار .. ودورة مياه منظرها اصابنى بالتوتر العصبى .. اننى أشعر برعب شديد من هذه المبولة بدافع نفسى لايقاوم !. وهاأناذا أرى نفسى محبوسا فى دورة المياه تلك ، ولا استطيع الخروج منها .. والآن استرجعت ذكرى حلم يشير الى ما ذكرت » فى تورية :

« فتحت دورة المياه .. فوجدت فيها هيكلا عظيما لامرأة .. أردت ان أمارس عملية الاتصال الجنسى معها .. وأخذت أمعن النظر فيها فتبين لى ان هذا الهيكل العظمى ما هو الا فتاة من صاحباتى !..

« اتمنى على الله يا دكتور مكسويل الا يستمر الآباء والامهات على العادة القديمة الشاذة وهى ايهام أطفالهم بأن الاطفال المولودة تأتى اليهم فى صناديق محزومة »

قلت هذا وانا فى اشد حالات الغضب يوما ما وأنا اروى له خواطر حرة فى احدى جلسات التحليل النفسى .. وإذ ذاك برزت أمام مخيلتى صور زاهية .. وعلى التحديد صورتين احداهما لامرأة حبلى رأيتها هابطة بالمصعد للذهاب الى الطبيب .. والاخرى صورة امى وهى حامل ايضا .. فتوترت اعصابى وشملنى الغضب وتملكتنى رغبة ملحة فى أن اصرخ فى وجه دكتور مكسويل!.

« كان عمرى وقتئذ خمس او ست سنوات .. وكانت أمى حاملا .. كانت والحيرة تبدو فى ملامح وجهى لما رأيته من انتفاخ بطنها . ولما سألت عن سبب هذا الانتفاخ تلقيت جوابا فيه من التملص والغضب سواء من أبى أو الجيران ... وأخذت أنا وغلام آخر من سنى نتكلم عن هذا السر الهام .. وبعد الوضع ، اشتبهنا – انا ورفيقى الصغير – فى أن الطفل الذى ظهر بجانب أمى لا بد

وان يكون قد عاش فى بطنها حتى كبر !. وقال لنا الناضجون الذين بلغوا الرشد من الصحاب والاهل ان الطفل قد اتى فى ذلك الصندوق المركون بجوار باب المخزن .. ولذا فقد انصرفنا عن التفكير فى هذا الامر مرة أخرى .. على اننا مع ذلك قد أدركنا من تلميحات كافية صدرت من الاولاد الكبار — أولاد الشارع — ان الحمل ينشأ عن عمليات جنسية كانوا يهمسوا بتسميتها فى كلمات بذيئة ، ولهجة شاذة مخجلة لا يصح أن تقال » ..

فقال دكتور مكسويل أن بعض الراشدين الذين نضجوا وتفهموا الحياة — ولو أنهم قليلون — قد تغلبوا على ذلك الجهل المطبق الذى كان سائدا فى العصر الفكتورى ، وعلى كبح العواطف وضبطها ، صاروا يدركون ويستصوبون الوضع الحقيقى للطفل وينظرون النظرة الحقة للأسئلة التى تتوالى لمعرفة حقيقة موضوع الجنس والحمل .. وتساءل دكتور مكسويل عن السبب الذى يمنع من اجابة الاطفال عندما يسألون عن الجنس ؟. لماذا لا نعطيهم الاجابات الصادقة الكاملة التى تتناسب مع أسنانهم وعقلياتهم وادراكهم ؟. ربما لا تدرك انها تهم تماما التفصيلات البيولوجية دفعة واحدة وفى الحال .. ولكن يجب أن يعطى الطفل الاجوبة الصادقة حتى يشعر بأن الواضحين من أهله قد وضعوه فى الدائرة العائلية الودودة الاليفة وأنهم يعاملونه بعطف وعدل ..

وبعد برهة صمت استطرد دكتور مكسويل يقول :

حاول إن تدرك كيف أن تلك المزاعم أو الوسائل الصارمة التى كانت بمثابة موانع وتحذيرات قاسية تقف فى طريقك الطبيعى ، أمكنها ان تحولك الى درب جانبى غير الذى يجب أن تسير فيه .. وبعبارة اوضح استطاعت ان تحجب مقدارا محققا من « الابداع العلمى » . أن تقصيك العلمى ربما كان لا يزال يقاسى من تلك الذكريات المؤلمة القديمة ، وربما يمكنك أن تصل الى اكتشاف علمى او نظريات علمية جديدة اذا طردت بعض احلامك النهارية عن النساء والجنس » ..

وحاولت أن أعمل بنصحه هذا ...

فى طور طفولتى لم تكن هناك مسحة صدق متصلة بالاسرة او الجماعة .. وحتى ذكرياتى المبكرة كانت مليئة بما يتبين منه إنها كانت مفعمة برعب شديد من الوالدين .. كنت أبدو بعيدا عنهما كما لو كنت غريبا عنهم !. وعندما اكون واقعا فى محنة او مشكلة أهرب بعيدا عنهما بدلا من الالتجاء اليهما لحمايتى وتخفيف عبء المحنة عنى !..

انى الآن أعود بذاكرتى الى حادث وقع لى وانا فى السادسة من عمرى : « كنت العب الكرة يوما ما ، وضربت الكرة فتعدت الحدود وصدمت واجهة عرض زجاجية فى محل تجارى فحطمته ... فتلكمنى رعب مروع ولم ألبث أن تركت اللعبة وعدوت الى مخبأى السرى فى غرفة فوق سطح منزلنا .. وبقيت هناك مختبئا ساعات طويلة خشية أن أعاقب عقابا شديدا ! ..

وعندما ساد الظلام ، سمعت والدى وهما يبحثان عنى ، ويؤكدان أننى لن أعاقب .. فلما سمعت هذا الوعد منهما ، برزت من مخبأى، ولكنى كنت لا ازال اشك فى هذا الوعد واتوقع منهما نكثه !..

قلت مرة وانا فى حالة استرخاء فوق المضجع :

« كنا نكره أحد المدرسين ، ونعمل على معاكسته .. وتجاوزنا تصرفنا الشاذ معه لدرجة اننا كنا نغلق باب « الفصل » علينا ، ونتركه يقرعه طويلا .. ونعتذر بأننا لم نسمع القرع !. وقد أخذ المدرس يبادلنا كرها بكره ويعمل فى تفنن على ايذائنا ... فكان يترك التلميذ يتلوى من الالم ويمنعه من الخروج للتبول .. ولكنه حين يجد الامر قد بلغ مداه ، يصرح له بالذهاب الى المبولة وهو يشيعة بالجملة النابية « اذهب وارجو ان تسقط فى المرحاض »

« واذكر يا دكتور مكسويل أن أحد المدرسين غضب منى غضبا شديدا دون ما سبب اعرفه .. فوقف امامى مرعدا مبرقا يصيح بى أن اكون مهذبا .. وهأناذا أراه الآن فى خيالى كما كان وقت الحادث .. يضع فوق راسه قبعة من القش اللامع ، ويربط عنقه

برباط من الحرير الاصفر .. ويلبس حذاء متقن الصنع له عنق طويل .. وجبهة ممتقعة من شدة الغضب .. وهاهوذا يرفع عصاه الغليظة ويطوح بها نحو رأسى ، فأتفادى الضربة بذراعى فتهوى فى قوة على ذراعى ، ويسمع لها صوت يدوى فى أرجاء غرفة الدرس!. ويمسك الطلبة انفاسهم من هول الضربة الوحشية .. واشعر انا بالالم الشديد ، ويتعالى أنينى ، ويكاد يصيبنى الاغماء .. ويرفع المدرس عصاه مرة أخرى محاولا ضربى ، ولكن أحد زملائى الكبار يثب نحوه ويقبض على ذراعه ، ويمنعه بالقوة من معاودة الضرب ، وهو يصيح « أيها الوغد الزنيم لقد كدت تحطم ذراعه » !.. فثار المدرس ثورة جامحة على « چيك لأ صديقى وزميلى الكبير الذى شل حركته .. ولم يستعمل المدرس كل قوته ضد الطالب الاقل منه قوة دون ريب، خشية اتلاف ملابسه الانيقة التى يعتز بها !. وقد هاج الطلبة ، واختل نظامهم ، وخرج بى « چيك » وكثيرون غيره وأوصلونى البيت حيث أخبرت والدى ...

وقد غضبا فى اول الامر ، ولكن عندما روى لهما « چيك » والآخرين ما حدث وقد كانوا تحت تأثير الرعب مما أظهره ذلك المدرس من وحشية وقسوة ، وأيد وصفهم الاثر البالغ الذى تركته الضربة فوق ذراعى .. عند ذلك ذهب أبى الى المدرسة ليناقش المدرس رئيس المدرسة ... وانتهى الامر بامتناع المدرس بضعة ايام عن ايذاء التلاميذ بمثل هذه القسوة .. ولكن ما لبث أن عاد أبى عادته القديمة التى تمتزج بدمه ...

وتذكرنى قسوة هذا المدرس بسيطرة أبى على الاسرة . فقد كان يتحكم فى أفراد أسرته لايترك لاحد منا ان يذهب مع الاصدقاء الى الحفلات او النزهة ، بل يصر على ان يكون معنا كبير من الاسرة ، هو أو الام ، أو من يثق فيه من الاقارب ، لاننا كما يصفنا أشقياء أغبياء !.. وظل لايتزحزح عن « مكان » القيادة ، مكان الآمر الناهى ، والطاغية المستبد فى المحيط العائلى !.. يثور طول اليوم ، وبعض الليل ، يتكلم صاخبا ويصدر الامر بسرعة مائتين

وأربعين كلمة فى الدقيقة الواحدة !..

« ولكن اعتقادى الذى كان ملازما لى دائما فى الطفولة والمراهقة وطور النضج هو أن الفرد لكى يعيش هانئا ومرتاح البال بين المستبدين القساة يجب أن يكون أكثر جبروتا وطغيانا .. أما أن يكون جبارا عاتيا أو عبدا ذليلا . وليس هناك حل وسط فيه سلام وأمن !..

« ولذا لم أكن ممتثلا لجبروت أبى وطغيانه ولا مستصوبا لكل ماتفرضه شخصيته وما يتخذه من أوضاع .. كما لايمكن أن أقبل الحياة فى البيئة العائلية عبدا رقيقا الا الى حين .. الى الوقت الذى أبلغ فيه سن السادسة عشرة وهو سن دخولى الجامعة حيث أنتقل من بيئة الطغيان الى بيئة الجامعة .. ولكن حتى هذا الوقت يجب أن أتحمل بضع سنوات من « الحياة الشاقة » الخالية من السعادة ، والمليئة بالثورة على الاوضاع والمعاملات .. فريسة لطغيان والدى وتمزيقه لكيانى وتعذيبى .. كنت كالسجين الذى يخضع لنظام دقيق صارم ولكنه ـ أى السجين ـ يعمل سرا فى اناة وصبر فى حفر النفق الذى يقوده الى الحرية !..

كنت فى تذكراتى الماضية التى استرجعها الان لا أزال أذكر أن اكثر تلك الذكريات ايلاما لنفسى هى ماكانت متصلة بأبى .. لان كل معاملاته وتصرفاته معى كان من المستحيل أن تتم فى يسر وسهولة وسرعة ، كعادة الطغاة .. ان تبدل الطباع يتم بطريقة مشابهة لطريقة « الانصهار » بأن توضع قطعة المعدن المطلوب صهرها فوق نار بطيئة حتى تصل الى الدرجة المطلوبة ومن ثم تحول بعد تبريدها فى بطء ايضا الى شكل جديد ، متخذة القالب الافضل وهذا هو مايتم فى عملية التحليل النفسى .

* * *

الفصل العاشر

اللهيب والمصهر

« ان قطعة النسيج الرقيقة
تهتز جميعها عند لمس اى موضع
منها ... تماما كما هو الحال عند
لمس نسيج العنكبوت »

توماس هارى

كثيرون من « الابناء » من لهم صفات الآباء الى حد بعيد وهم سعداء ، فائقو السعادة ، لان آباءهم كانوا كثيرى العطف عليهم .. قلوبهم مليئة بحرارة حبهم .. أقوياء .. رجالا طيبين يفهمون الوظيفة الطبيعية لحياة الآباء .. للحياة الوالدية .. أما انا فقد كنت على النقيض من أولئك الابناء .. كان مركزى يختلف عنهم اختلافا تاما .. ومع ذلك فقد استطاع التحليل النفسى بطريقته السحرية الحاذقة أن يبث فى نفسى الشجاعة لان أنظر الى صورة والدى على حقيقتها .. لم تكن صورة مستلطفة تجذب النظر .. لقدكنت أيضا اراها فى مرآة نفسى .. وكذلك بالفراسة ، فلا أجد فيها مايستحب !.. وكنت احاول ان أتعلم ــ وقد نجحت المحاولة ــ كيف يسود السلام بين أبى وبينى .. أمتص الطيب من معاملته لى ، وانبذ الخبيث منها .. وحتى اذا اقتضت الضرورة أقبل كل اشتراطاته على حتى لايقع اصطدام بيننا .. واخيرا ــ لما زالت عقدة الأب التى كانت تلازمنى فى طور الطفولة والمراهقة والحياة الجامعية ــ وعندما ساد الوئام والعطف والتفاهم بينى وبينه .. أدركت اننى خطوت خطوة موفقة فى طريق شفائى ..

وحتى لا أضلل أو اخدع ، أسارع مقررا بأن هذا التحول الباهر فى مجرى حياتى العائلية .. بينى وبين والدى .. لم يكن نتيجة الاطلاع على كتاب يبين لى كيف .. « كيف اكتسب الاصدقاء » أو

يرسم لى طريق سيرى فى « حياتى مع والدى » .. نعم ان الكتب كثيرا مالكون من العناصر المفيدة فى التحليل النفسى ، ويمكن الاعتماد عليها .. ولكن — من تجاربى — استطعت أن أتبين أن تحسن حالة المريض النفسانى لن يكون ابدا بالاكتفاء بالاطلاع على الكتب التى تعالج هذه الموضوعات فحسب بل بأن يعيش المرء انفعالاته المكبوتة من جديد فى تجربة التحليل النفسى العملية .. وحتى يكون العلاج فى مستوى شامل من الانفعالات التى تؤثر فى المشاعر ، طلب منى دكتور مكسويل ان اترك مؤقتا قراءة الكتب النفسية والمجلات التى تعالج مواضيع التحليل النفسى ، والطب العقلى ، وعلم النفس .. لقد كان يشعر أن التحليل يزيد من سرعة الخطى نحو الشفاء متى اتبع المريض النفسى التعليمات فى دقة وخضوع تام .. وقال ان الكثيرين من العلماء النفسيين يطلبون من مرضاهم الامتناع عن الاطلاع على ماسطر فى الكتب عن هذا التحليل ، وهم مازالوا تحت العلاج .. وبعد ان يتم الشفاء لهم يمكنهم ان يطلعوا على مايريدون

لم أستطع ان أتبين ماهى التطورات العلاجية التى مرت بى ورسخت فى عقلى مستحوذة على كل حواسى خلال سنتين من علاجى النفسى ، وهى التى حولت حياتى الى ناحيـــة الشفاء ، فأصبحت اشعر بسعادة وراحة بال تسود ذكرياتى مع والدى ، ومع جميع الافراد الصغار والكبار ، والمشهورين والمغمورين — حتى صرت الآن لا اخشى بأس الرؤساء ولا رجال الشرطة من راكبى الدراجات البخارية الذين كان تتبعهم لى وانا منطلق بسيارتى يملؤنى رعبا !.. وأخذت أشعر شعورا واضحا بهذه التغيرات التى برزت فى أفق حياتى أثناء علاجى النفسى .. كانت بعض هذه المشاعر تبدو لى بطيئـــة وئيدة الخطى .. والبعض الآخر منفجره سريعة الانطــلاق .

وكنت فى أحد اطوار العلاج — عندما كنت اناضل التخلص من « عقدة الاب » — اشعر فجأة بأننى لا أقوى على توقيع اى « شيك » الا بمجهود شاق .. كان القلم يبقى بين أصابعى فترة طويلة قبل ان

احركه بعد نضال طويل !.. بينما كنت أوقع الاوراق الاخرى فى سهولة ويسر !..

وقد أعاد هذا الى ذاكرتى حالات بعيدة التاريخ .. أيام دراستى الجامعية .. وهى حالات كنت فيها فريسة الغضب الشديد ، عندما كان ابى يعارض بل يرفض التوقيع على « شيك » بمصاريفى الجامعية .. كان يناقش ، وينتحل الاعذار ، ويلعب بى كما يلعب القط بالفأر قبل القضاء عليه .. وانصرف من أمامه لالحق القطار ، وفى هذه اللحظة يكون قد وقع الشيك وقذف به الى !. وعندئذ ، وقد وصل بى الى حافة الهاوية وهو يعاند أو يعبث ـ لست ادرى ـ أشعر كما لو كانت كل خلايا جسمى وكل مشاعرى قد انهارت بعد أن نزفت دما .. فأثور ، وتملكنى فكرة مسيطرة تدفعنى الى اعتزام مفارقة هذا الاب القاسى العابث بمشـــاعر ابنه وكرامته وشخصيته ، فراق الابد .. حتى لا اعرض نفسى لمثل هذا الامتهان وهذه المذلة .. ولكن بعد وقت قصير تبرز امامى تلك المؤثرات النفسية التى تسيطر على عواطفى نحو أمى ، واسرتى ، وتربطنى بهم برباط لايمكن ان تنفصم عراه .. وكذا النظرة البعيدة الى مستقبلى كل أولاء كانت تنتصر على اصرارى على الهجرة ضاربا بعصاى الطريق الذى يصل بى الى المجهول فى خضم هذا العالم !..

فلما رويت هذه الحوادث الى الدكتور مكسويل فى استفاضة ، وذكرت له ماكنت أشعر به من آلام بعد ذلك وانا استعمل ذراعى اليمنى فى توقيعات أو تجارب خاصة بعملى الكيمائى مع اساتذتى ثم بعد ذلك مع علماء الكيمياء فى حقل التجارب الخاصة بالنباتات وما الى ذلك .. لم يقل شيئا .. واستمر يحلل نفسيتى كعادته فى هدوء وصبر .. فلما برزت « عقدة الاب » خلال العلاج اخذت آلام ذراعى تظهر كثيرا فى مواقف عدة .. وبعد بضعة اسابيع ارغمت من شدة التصلب فى ذراعى ، على التوقف عن توقيع اذونات الصرف .. ولكن ما لبثت هذه الظاهرة ان زالت فى سرعة ، أو كادت لاتحدث الا قليلا ، خلال بضعة شهور .. ثم تبين لى انها بعد

ذلك قد فارقتني إلى غير رجعة ..

وأثناء تحليلي النفسي في مدى عامين ، برزت الى السطح عقد كثيرة تتصل بحالات متعددة نتيجة للعوامل النفسية او المخاوف المرضية ، أو الاضطرابات الشخصية .. وهي عوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية في آن معا كما قال دكتور مكسويل ـ كالخوف المروع الذي يسيطر على النفس من رؤية الافاعي أو رؤية رجل البوليس

والحادثة التي سأرويها هنا قد حدثت لي قبل التحليل .. وقبل ان تبرز عقدة الاب الى السطح ..

« عندما كنت منطلقا بسيارتي نحو المدينة ، التقيت بأحد رجال البوليس فشعرت بتوتر في أعصابي ، وملكتني رعدة من الخوف ، حتى قبل ان يكلمني .. ولما كلمني لم يطلب مني أكثر من ان أنقله معي الى البلدة .. وبعد أن جلس بجواري تبينت فيه أحد الحراس الذين يتولون حراسة الشركة التي اعمل بها ، ولذا فقد طلب مني في بساطة أخذه معي الى البلدة »

وبعد مرور بضعة أيام على رواية هذه الحادثة القديمة شعرت بأن حالتي زادت سوءا حتى كنت اذا ما رأيت شرطيا وانا في محل عام أشعر بدافع يحفزني الى مغادرة المكان من شدة الرعب ، ولكني كنت اناضل في يأس هذا التوتر في أعصابي ، واقاوم هذه المشاعر العصبية . وبمساعدة دكتور مكسويل أمكنني أن أتبين أن رد الفعل الشديد هذا وما يكتنفه من عجب وغرابة ، منشؤه « عقدة الاب » .. ولذا فقد استطعت في بطء ، ولكن في حزم وتصميم ، أن أتخلص من خوفي عند رؤية رجل البوليس الى الابد .. لقد ألقيت به من فوق منكبي حيث ظل طويلا يمثل شبح الرعب ، وقد زال الى غير عودة !..

وقد كان هم دكتور مكسويل ان يزيل هذه العقدة من نفسي وقد نجح .. كان تملكها لزمامي ، وسيطرتها على نفسي هو السبب المباشر لمحاولاتي الفاشلة ضد عقدة السيطرة التي كنت اقاومها

وادفعها عنى .. كانت عناصر مختلفة عديدة : الاب .. أخى الاكبر .. رؤسائى .. القضاة .. رجال البوليس .. علماء الطب المشهورين .. الاطباء النفسيين .. وغيرهم ..

ان التحليل النفسى لم يرسم لى صورا جديدة عن والدى بحيث أحدث هذا التغيير نحوه ، ولكنه ساعدنى على استرجاع الكثير من الذكريات التى كانت تربطنى وثيقا بذلك الوالد العتيد ، فزالت كل آلام طفولتى التى سببتها « عقدة الاب » .. زالت تلك الايام التى كنت أمقتها لانها كانت فى اعتقادى مؤلمة لى .. زالت بعد أن تبين لى جليا معناها ، وما كان القصد منها .. أنها كانت تصدر من أبى لغاية نبيلة بعيدة البعد كله عن قسوة أب على ابنه .. كانت تصدر لتزبى فى نفسى كل ما يرجوه لى والدى من خير وتربية صالحة .. وصار فى مقدورى أخيرا ان أقول فى صوت قوى النبرات :

« هذا ما كان من أمر أبى معى .. وهذا ما كان يجب أن يكون » !..

وهكذا بعد ان وضعت فوق « المصهر » الذى يشتعل اللهب تحته أصبحت حرا طليقا من « عقدة الاب » التى كانت تهيمن على مشاعرى

* * *

الفصل الحادي عشر

« روبين تليت »

« .. ولكن الاصداء المتجاوبة
بين روح وروح يظل رجع صداها
يتردد مادامت الحياة »

توماس هاري

ان ذكرياتي التي استرجعها عن صورة والدي المرسومة في أعماق خيالي هي ذكريات بعيدة العهد ، ولكنني لا انساها ابدا .. مازلت اراها كأنها بنت اللحظة

مازلت اذكر كيف كانت يقظته المبكرة في السابعة الا الربع باستمرار رتيب في الصباح الباكر .. في انفجار مروع مدو !..

كان يستيقظ على صوت جرس « المنبه » .. واذكر في جلاء صيحاته الصباحية المجلجلة وهو يطلب البحث عن أزرار ياقة قميصه التي يفتقدها ولا يجدها صارخا « فريدا .. فريدا » في نبرات قصيرة حادة تتدرج في العلو كما لو كانت لحنا صاخبا .. فيها لهجة الشدة والأمر ! .. ولم يكن يدعوه الى الكف عن اطلاق هذه القنابل أن يرى أمي بجواره عند اول صرخة وهي تبحث عن ازرار القميص .. وكان دوي صرخاته يتنقل صداه في جميع ارجاء البيت معلنا للجميع في تأكيد انه استيقظ الان !.

وهذه الشكاوي القصيرة الحادة التي تشبه طلقات الرصاص ، كان يحلو له ان يعبر بها عن جزعه لانه سوف لايصل الى متجره في الميعاد بسبب هذه المؤامرات التي تحاك حوله لتأخير موعد افطاره !

وكان يعبر عن هذه الشكاوي بصوته المرتفع ، ولهجته السريعة في اطلاق الالفاظ من فمه بسرعة المدفع الرشاش !

لقد التقيت بالكثيرين من المختزلين الذين يفخرون بسرعتهم في

الكتابة .. ولكنى اشك فى أن احدا منهم يستطيع ان يبز أبى فى سرعة القائه « مونولوجه » الصباحى .. ويمكننى كذلك ان أقرر اننى مازلت حتى الآن أشعر بانتفاضة أعصابى عندما كنت اسمع موشحه الصباحى وهو يردد قوله : « فريدا .. فريدا .. اين الملح ؟» وهذه ، لو حسبت لها الميقات ، كانت مائتين واربعين كلمة فى الدقيقة كما قلت .. أى بسرعة تعادل ثلاث مرات سرعة دقات قلب الانسان ! ..

كان وقت تناول وجبة الافطار عبارة عن شكوى طويلة عن نوع الطعام وصفاته .. مع أن طعام الافطار تستطيع ، حتى الطاهية العديمة الخبرة ، أن تقوم بتهيئته على مايرام .. وأمى معروفة بأنها بارعة جدا فى فنون الطهى !. ومع هذا فان أبى العنيد « روبين نايت » لم يكن يوفر انتقاده .. بل لابد له من الشكوى التى أصبحت لازمة من لوازمه .. انه ينتقد الليمون الهندى ، والحبوب المطهية ، والبيض ، وغيرها .. ولكنه يحتفظ بشكواه الكبرى عندما يصل الى احتساء القهوة !.. انه ينفجر ثائرا ليقول ان معدته لايمكن ان تهضم « هذا النوع من البن الردىء » .. وبعد ان تتذوق أمى المسكينة القهوة فلا تجد فيها أية غضاضة أو عيب ، يظل ثائرا متهما اياها بأنها بدلا من ابتياع احسن انواع البن ، ابتاعت نوعا رديئا مما تبيعه حوانيت الجمعيات التعاونية بأثمان زهيدة !. ثم يزداد ضجة وهو يشرح كرمه ، وعدم ضنه عليها فى الصرف لتشترى الطعام الجيد المحروم منه دائما !. وبعد احتساء قدحين أو ثلاثة من القهوة التى يدعى أن بنها ردىء يثب واقفا على قدميه ويندفع الى الخارج كالعاصفة وهو يصيح بأنه تأخر عن موعده قائلا : « لقد تأخرت .. لقد تأخرت .. انكم جميعا السبب فى هذا التأخير .. تألبتم على لتأخرونى عن موعدى مرة أخرى » !..

وقبل أن يصل الى الباب الخارجي يعود صاخبا لانه ألفى نفسه بدون قبعة وبدون معطف !.. ولكن أمى كانت قد تنبهت لذلك فأتت اليه بما انساه الشيطان أن يأخذه !.

ويغادر البيت أخيرا بعد لعنات وسباب ، ولكنه يعود بعد برهة صاخبا ثائرا قبل ان يزول توتر أعصابنا الذى سببه هذا الوالد الثائر الشتام السليط ليقول فى صراخ متتابع بسرعته المعتادة : « المطر .. المطر .. اسرعوا .. مظلتى .. لعنة الله على ذلك اللعين الذى استعار مظلتى » ..

ولا نفهم من الذى يقصده بهذا القول .. ومن هو هذا اللعين الذى استعار مظلته .. ولكننا نرى أمى المسكينة تبرز لنا وهى تحمل المظلة !.

ويغادر الاب العتيد البيت وهو ينثر خطاه ، ويقذف بألفاظ السباب .. كان ابى لايتوقف عن توزيع شتائمه .. هذه الشتائم التى اعتادها واصبحت من لوازمه والتى يتدفق سيلها فى غيرانقطاع بل يزداد حتى وهو يعمل فى مكتبه بالمتجر !..

وكان صوته وحركة سيره لايمكن الا ان تتسما بالسرعة الفائقة . وهو على إعتقاد تام بأن اوامره وطلباته الدائمة تنفذ فى طاعة عمياء مع الاحترام والتبجيل والزلفى من منفذى هذه الاوامر .. موظفى ومستخدمى متجره ..

وكانت العبارات المعسولة تتناثر من أحد جانبى فمه حين يرد على أحد موظفيه وهو يستشيره بشأن صفقة كبيرة ، وحين تتم الصفقة تنطلق من الجانب الاخر عبارات السباب ، وهو يلعن نضاله وجهوده التى يرغم عليها لتوفير اسباب الرخاء والرفاهية لاولاده وبناته ، وهو مع ذلك لايمكن أن يتنبأ لهم بحياة رغده اذ ربما كان مصيرهم ، أو مصير احدهم على الاقل ، الي اللصوصية او ادمان المسكرات .. وينتهى به هو أيضا معهم الى العودة لحياة المزرعة الفقيرة كما كان !..

كان اذا ما تمت الصفقة يثب من فوق كرسيه وهو يلعن الحظ .. والاولاد .. وموظفى ومستخدمى المتجر لانهم ضغطوا عليه حتى باع السلعة بثمن زهيد لايعتبر ثمنا !.. واذا مارفض العميل الشراء وعدل عن الصفقة اهتزت أسلاك التليفون بسبب العميل وذويه من

والدين واولاد وبنات !

وكان أبى « روبين نايت » لا يعترف مطلقا بأن فشل الصفقة مرجعه الى حاجته الى قوة الاقناع ، او نقص فى براعته وذكائه .. بل الى خطأ العميل !..

ورغم كل ذلك فقد اثرى أبى من تجارته لانه كان من الدهاء والدراية بحيث كان فى مكنته ان يخفى نزعة العنف والشراسة فيه وراء قناع من اللين ومعسول القول عندما يتعامل شخصيا مع عملائه .. كانت الشخصية العنيفة الثائرة تختفى فى معاملاته التجارية !. وعلاوة على ذلك فقد عاش فى عهد انتعاش الاقتصاد وكان طيلة حياته الاقتصادية على صداقة وطيدة مع الحظ الذى لازمه من أول عهده بالتجارة وظل رفيقا مخلصا !.

ان لكل فرد « شخصيته الرسمية » ، « الواجهة » الجميلة التى يظهرها للعالم ليغريه ويلفت نظره .. وكان والدى من المهارة بحيث كان يحوز اعجاب الناس بمظهره ، وحسن هندامه .. أضف الى ذلك لهجته الرقيقة ، ومعاملته اللينة التى يتخذها دائما مع الاثرياء وذوى النفوذ من اهل « ميدل تاون » .. ولذا فقد كان موضع ترحيب اصحاب المصارف واصدقائهم .. يخطبون وده ويتقربون منه ، ويحسنون لقاءه .. ومعاملاته المالية معهم لاتلقى صعوبة ، وانما تتم على نطاق واسع غير مقيد !..

ولكى أبين كيف أثرت أعمال أبى فى مصيرى ، كان من المحتم ان اشرح تصرفاته فى جلاء واسهاب ، لان هذه التصرفات جعلت منى مخلوقا محطما منبوذا متجها الى طريق الدمار .. والتحليل النفسى .. وحده هو الذى استطاع ان ينتشلنى من هذا المصير المروع ..

ان من الخير لنا ان ندرك الافكار الزائفة التى تسيطر على عقولنا وتمتزج بالدماء التى تجرى فى عروقنا وكم هى وليدة الارث الوالدى .. اجل لقد ورثتها عن والدى ما فى هذا شك .. وانا هنا اقرر حادثة وقعت لى فى طفولتى كشفت عن رد الفعل ازاء الملونين

والسود الزنوج ..

ولو انني في طفولتي كنت لا أتصل بعائلات السود اتصالامباشرا الا انني كنت انظر بعين الاعجاب للرياضيين منهم ، ورجال الموسيقى والفنانين .. وكنت أستنكر في مرارة معاملة والدي لهم ونظرته اليهم .. اذ كان يجد لذة فائقة في التسلية الوقحة الوحشية التى يشاهدها في معارض السلع التى تستخدم في الاعلان عن نفسها رجلا زنجيا عارى الراس وفوقه كتبت جملة تدل على مدى نقص العواطف الانسانية ، والوحشية الموجهة الى مخلوقات بشرية ، اذ تقول الجملة التى تعلن عن السلع « أصب مكان الاغنية كي يمكن ان تحصل على سيجار » .. والمقصود هنا راس الزنجي الذى يبرز من فجوة ، فيطلق عليها الزائر اللاهي كرة صلبة ليصيبها بينما يحاول الزنجي التعس التراجع حتى لاتصيبه .. وغالبا ما تكون القذيفة أسرع انطلاقا من التراجع فتصيب الراس ويعلو صراخ الزنجي في تنغم » وهذا التأوه أو الصراخ هو الاغنية !.

وكنت ذات مرة مع أبى نزور متنزها على مبعدة قليلة من مدينة « ميدل تاون » فالتقينا بأحد هذه المشاهد المجردة من الانسانية .. وكانت نظراتي اليها تفيض مقتا واحتجاجا وكراهية بعكس والدي الذي كان يجد فيها لذة وترفيها ، ويظل يتغنى بذكر هذه اللذة طويلا .. وكانت تشبع نهمه الى حد بعيد وتتمشى معنظرياته الخاطئة عن تفوق السلالات والاجناس وسموها !

وبعد مرور عشرين عاما على هذا الحادث كنت أقول للدكتور مكسويل وانا مستلق على المضجع :

« أنا غاضب من بعض الناس .. لا أعرف تماما من هو .. اشعر برغبة ملحة في سبه .. ولكن ألفاظ السباب التى أهم بنطقها لايليق أن تصدر منى .. لا استطيع لفظها .. لان اى انسان مهذب لايرغب في أن يقولها .. ولكنى لا أجد مفرا من ذلك . انه أسود زنيم .. ملعون »

لما صارحت الدكتور مكسويل بذلك في حرية تامة ، شعرت

بتوتر نفسي وبحزن واسف على مابدر مني دون ادراك ..

ولكن هذا ساعدني على استرجاع ذكرياتي .. استرجعت ماكان يفعله أبي قديما وانا طفل .. والافكار الشاذة ، ومشاهد الافلام السينمائية التي دعمتها .. وبمجرد تذكر ذلك وادراك ماينطوي عليه كنت أشعر بقدرتي على سحق تلك الافكار وابادتها .. وهذه كانت أول خطوة .. ثم تلتها الخطوات النهائية التي أتت وئيدة موفقة ناجحة نتيجة التحليل النفسي ..

وهاهي النتيجة اليوم .. لقد اصبحت طبيعيا .. أقل صلابة في معاملتي وعلاقتي بالسود الذين يقومون بأعمال الزراعة في الحقول ، والذين يعملون معي في العمل ..

وكنت اذا ما حضرت اجتماعا من اجتماعات الجمعية الكيمائية اشعر بصفاء وغبطة وانا اعمل ومعي الزملاء الكيمائيون من السود وعلى هذا فقد كانت كراهية أبي للزنوج موضع حقدي .. وظل هذا الحقد متأججا في صدري حتى حدثت حادثة كان لها وقع خاص في نفسي ..

قبل زيارتي مع أبي للمتنزه وكشفي عن مبلغ احتقاره وكرهه للسود ببضعة اسابيع ، استطعت اكتشاف نوع الاب الذي أريده

ففي يوم ما .. وانا في سن العاشرة .. كنت عائدا من المدرسة فشاهدت زحاما شديدا حول عربة من عربات البوليس ، اذا كان احدهم يحاول سحب احد الزنوج الى السيارة وهو في حالة سكر شديد مستعملا معه قسوة بالغة الوحشية .. وكان هذا الشرطي بالذات معروفا بأنه أسوأ رجال البوليس المدينة خلقا وأشدهم فظاظة .. وبينما كان الرجل الغائب عن الوعي تقريبا يدفع دفعا كأنه حيوان .. سقط على جانب الطريق ، وامسك وهو يسقط بكم سترة رجل البوليس فمزقه دون قصد طبعا .. ولكن رجل البوليس القاسي القلب اخذ يكيل له اللكم حتى ادمى فمه وأنفه ووجهه فأصبح كالشاة الخارجة من المذبح !..

وكان المشاهدون من الجمهور يلتقطون انفاسهم ، ولكنهم لم

يتدخلوا أو يحتجوا لعلمهم بسوء خلق ذلك الشرطى وسرعته فى اشهار غدارته .. ولبثوا لايتفوهون ببنت شفة ازاء هذه البربرية

وفى هذه اللحظة بالذات رأيت رجلا فارع الطول .. وليس من اهل « ميدل تاون » ـ كما هو واضح من مظهره وهندامه ـ يتقدم نحو رجل البوليس ويقول فى صوت هادىء مهذب :
« اطلب منك الكف عن ضروب هذا الرجل التعس » ..

فزمجر رجل الشرطة واخذ ينظر الى الرجل الغريب فى قحة ، ثم واصل ضرب الرجل الزنجى !..

فعاد السيد المهذب يقول فى صوت اكثر ارتفاعا وفيه لهجة الامر الصارم : « كمواطن ، آمرك أن تعامل أسيرك أو سجينك معاملة فيها انسانية » ..

وكان فى نبرات صوته ولهجته الامرة ووقفته وتحفزه ازاء رجل البوليس ما اشعر الجميع بأنه يوشك أن يجرد رجل الشرطة من سلاحه ، ويلقى به أرضا ..

ويظهر ان رجل البوليس الفطريس ادرك هذا ، اذ سرعان ماظهر عليه التراجع وقال فى لهجة اعتذار :

« انه مزق سترتى الرسمية وهى جريمة يعاقب عليها » ..

وما لبث آن دفع السكير الى العربة وامر سائقها بالسير !..

فصاح الجمهور فى سخط وعداء ، ثم هتفوا تحية للبطل الغريب الذى حول الموقف الى هذه النهاية ..

واسرعت نحو الرجل الغريب لاتحدث اليه وأشكره .. فأخذ يتفرس فى وجهى .. وحاولت أن أتكلم ولكنى كنت فريسة التأثر الشديد فشعرت بضيق فى صدرى ، وغصة فى حلقى ، واستعصى على القول واخذت أغالب دموعى !

وأدرك الرجل كل شىء ... فوضع يده فوق كتفى قرابة دقيقة ثم غمغم يقول : « ان الحياة فيها من القسوة الكفاية .. وهى ليست فى حاجة الى وحشية او بربرية .. فعلى المرء أن يناضل هذه الحياة ؟..

واستقل سيارته التى كانت تحمل لوحة اقليم بعيد .. ولم نره بعد ذلك ابدا .. كما أننا لم نتعرف على شخصيته .. فلا شك انها كانت شخصية عظيمة .. وقد ظل هذا السيد البطل عائشا فى اعماق كيانى وفى نفوس الآخرين دون ريب ، اذ تعلمنا منه الشجاعة، والعدل ، والحب الابوى ..

وقد مرت بى سنوات عديدة قبل أن أعثر على أب طيب حتى وجدت الاب الصالح فى دكتور « جولد شميدت » مرة أخرى ، ثم اخيرا فى دكتور مكسويل محللى النفسى ..

* * *

الفصل الثانى عشر

الأم

« عندما كنا أجنة يلفنا ظلام
الرحم لم نكن نعرف وجه الام
... ولما تركنا السجن القابع فى
جوفها الى نور الدنيا ... هل
انتقلنا حقا الى سجن آخـر هو
سجن الارض ؟ »

توماس وولف

خلال العام الاول من تحليلى النفسى كان دكتور مكسويل يحاول دائما ان يترك لى قيادة التحدث اليه عن موضوع جديد لم يسبق ان طرقته من قبل ... وقد كان هذا يتم حقا عندما تتوفر عناصر الالم وثورة نفسى المتفجرة لسبب ما ... وكانت طريقته للحصول على معلومات جديدة أن يضع أفكاره أو اتجاهاته وأهدافه فى قالب أسئلة ليكون موقنا بأنه سيظفر حتما بما يمكن أن يجول فى نفسى من أفكار فى هذه اللحظات بالذات ...

وفى العام الثانى من العلاج ، عندما اصبح فى مقدورى أن أفتح جراحى القديمة واكشف عن الخبىء من متاعبى دون حذر ، وعندئذ فقط بدأ دكتور مكسويل يكون معلومات مباشرة وتفسيرات صميمة .. ولكنه مع ذلك لم يستطع الا فى الشهور الاخيرة من التحليل ان يدلى الى باقتراحات يعتقد انها تخفف الحالة أو تحسنها ..

ومرت شهور طويلة من التحليل قبل أن أقـدم له نوعا من الخواطر أو الاحلام التى تتصل بأمى .. وقد حاول دكتورمكسويل ــ أحيانا ــ قبل ذلك ان يدفعنى فى لباقة الى التحدث عنها .. عن أمى .. ولكنه كان يفشل دائما فشلا تاما .. لاننى عندما قدمت نفسى للتحليل كنت شديد الاعتقاد بأن مشكلتى تتصل اتصالا وثيقا

بأبى ، وبالحرب التى كانت دائما أبدا ناشبة بينى وبينه .. اما علاقتى بأمى فقد كانت علاقة متينة صافية الاديم ..

وظلّ دكتور مكسويل بين كل وقت وآخر يحاول جاهدا ان ينوع حديثه أو نقاشه معى عن موضوع المدرسة « مرجريت » حتى يظفر بتفسير اوسع ولكنه لم يظفر الا بالقليل التافه ...

وكنت كلما طرقت باب التحدث عنها يسألنى المزيد ويقول : « هل هناك سبب آخر يدفعك الى حبك الشديد لتلك المدرسة التى فى سن والدتك ؟. »

ولكننى كنت لا ازال عاجزا عن الادلاء بأى سبب آخر عن هذه العلاقة الجنسية التى نشأت بيننا وانا فى طور المراهقة ! ويلاحظ اننى بعد ان قطعت ثمانية شهور من المرحلة العلاجية الأولى ، لاحظت أننى قد تخففت كثيرا من التوتر النفسى ، والقلق وما كان ينتابنى من هواجس وجزع .. فحسبت اننى شفيت .. وبدأت اشعر بالضجر من قضاء الساعات مع دكتور مكسويل فى العلاج بعد ان كنت اتلهف على لقائه واكره الابتعاد عنه !. وبدا الصراع مكشوفا الى حد بعيد بينى وبين ابى .. وظهرت عقد نفسية اخرى وضعت موضع الامتحان .. أمكن الوصول الى تحليل القليل منها .. وقد استطعت ان أظفر بالتحرر من الكثير من هواجسى وحالات جزعى التى كانت تنتابنى نهارا ومن حالات الكابوس التى كنت فريسة لها خلال احلامى الليلية .. فكلن من السهل الاعتقاد بأننى شفيت .. ربما لحد ما .. وهذه حالة نادرة لان من المفروض أن التحليل النفسى لشخص ما ، لايمكن ان يتم فى اقل من عام وانه فى اغلب الحالات قد يمتد الى عامين أو ثلاثة ..

ورغم هذه المتناقضات فقد كنت بعد مرور ثمانية شهور فقط من العلاج احاول ان أقنع نفسى بأنى ضربت الرقم القياسى فى سرعة الشفاء !.. ولكنى بعد أن أعملت عقلى تبين لى أننى كنت على خطأ .. وما كان الامر معى الا دفعا للأمور فى تسرع بقصد الشفاء العاجل قصير الأمد .. ولكنى كنت مقتنعا تماما بالفكرة ...

واخيرا صارحت دكتور مكسويل بكل ما يعتمل فى عقلى وما أشعر به .. فكان جوابه حاسما محددا وموجزا فقال :

« ان حالتك فى تحسن .. ولكن شفاءك لم يتم بعد .. وغاية ما يمكن أن توصف به حالتك هو انك أخذت تبدى وعيا واستبصارا متزايدا بمشكلاتك الانفعالية .. والأمل يملأ نفسى فى أنك سوف تحصل على نتيجة سارة .. ولكن لا يمكنى أن أحدد الوقت لشفائك التام .. وقد سبق أن أخبرتك .. بل حذرتك لكى تهيىء نفسك لتلقى خبرا سارا وهو أن علاجك ربما لا يطول اكثر من ثمانية عشر شهرا او عامين » ..

ثم استطرد يقول بعد أن غير من لهجته التى مالت الى الرقة : « وللآن لم نعرف شيئا فى الحقيقة .. أى شىء .. عن أمك ... وعندما تتزوج يجب أن تتأكد انك تزوجت « زوجة » لا رمزا أو بديلا لامك.. ان هذا يحدث كثيرا ومن المحتمل أنك لاحظت ذلك ».

وبعد أسابيع عديدة « دخلت » فى طور كله عصبية وقلق .. وكان على أن أرغم نفسى أن أدقق فى تنفيذ مواعيدى المحددة مع الدكتور مكسويل ... وفوق المضجع كانت خواطرى تقاطعها وتعطل سيرها من لحظات الصمت .. وهذا غالبا ما يحدث وأنا استجمع خواطرى الحرة وألم شتاتها ... لأنى كنت شاعرا فى نفسى بأننى عن طواعية ، أحاول اغفال بعض الخواطر والآراء الهامة ، بأن أسهل لها طريق الافلات من حديثى .. وخلال هذا الوقت كانت لدى رغبة ملحة فى أن ارى صاحباتى القدامى وأجتمع بهن .. ووجدت نفسى محاصرا من جميع الجهات بالعديد من النزوات الجنسية!.

واخيرا .. وفى جلسة تحليلية ، كانت احدى الصور الحادة القاسية تطفو فى عقلى فشعرت بعدم الارتياح اليها .. وتبادر الى ذهنى أن أتركها تمر سريعا دون تعليق عليها .. ولكنى وجدت نفسى اقبض عليها فى اللحظة الاخيرة وهى فى طريق الاختفاء من ذاكرتى وعقلى الواعى :

« رايت نفسى فى حانوت حلاق .. صبيا فى ملابس بحار .. شعر

رأسى المجعد ذو الحلقات قد قص لتوه .. وهذه الحلقات من الشعر قدمها الحلاق لامى التى انفجرت باكية !. وأصابنى انزعاج حتى ملكتنى رغبة فى الفرار الى البيت .. وبعد أيام أرتنى أمى هذه الحلقات من شعرى وهى موضوعة فى علبة وقالت انها ستحتفظ بها كتذكار لطفولتى ... وانا الآن اشعر بمضض وألم يا دكتور مكسويل .. لاننى أفكر الآن فى اننى وقتئذ كنت راغبا أشد الرغبة فى أن ارتدى سروالا طويلا كالأصبيان الكبار .. ولكن امى عارضت وقتذاك حتى اضطرت أخيرا بعد أن طالت ساقاى وذراعاى الى الاذعان لرغبتى التى لم تستطع مقاومتها .. ولكنى ما زلت حتى هذه اللحظة ألوم والدى وأحسب انه هو الذىكان يمانع فى ارتدائى السروال الطويل .. ولكن ظهر انها كانت امى .. وأحسب انها كانت راغبة فى أن يظل أولادها أطفالا .. لتكون هى صغيرة السن ! »

ولما سمع منى دكتور مكسويل هذه الخواطر البعيدة كان سروره لا يقدر لانه قد استطاع ان يستخرج من أعماقى مثل هذه الخواطر المتصلة بأمى وقال :

« احسب ان لك القليل من المشاكل وراء كل ما ذكرت .. تماما كما هى الحال مع كل فرد نشأ فى مثل بيئتنا ... ألا نكون فريسة تلك الاغنيات التى ترددها الامهات فى تدليل صغارهن لجلب النوم الى جفونهم لو لم تكن هناك تلك الاعصبة الشائعة بين الامهات .. ولكن المهم الآن ان نكشف الغطاء عن رد الفعل المعين لديك ونوعه ونترك جانبا الحديث عن الاتجاهات الاجتماعية العامة . وحالما تتخلص من متاعبك الشخصية يكون فى مقدورك أن تتفهم ذلك العصاب الاجتماعى بمقدار ابعد مدى » ..

فقالت : « هل تعلم يا دكتور مكسويل أن هناك شيئا غريبا يدعوك لدهشتك ! .. شيئا اخفيته عنك ولم أذكره لك !؟. خلال الشهر الماضى شعرت بعذاب شديد وأنا أهم بالذهاب الى حانوت الحلاقة لقص شعر رأسى .. كنت شاعرا بجزع شديد ، او ربما بألم عندما طرأت على فكرة الذهاب للحلاق .. وأخذت أماطل

وأطيل حبل التأخير قدر استطاعتي حتى لم يكن في الامكان أن أتأخر طويلا .. وأخيرا ذهبت للحلاق لقص شعري ، ولكن ليس الى حلاقي الخاص المعتاد ، وهو الذي يواجه حانوته الشارع الرئيسي ، بل الى آخر يقع في « بدروم لاحدى العمارات بعيدا عن المارة في الطريق العام .. وبرغم هذا كنت أشعر بأنني غير مستريح خلال الدقائق القليلة الاولى ، وتملكني اعتقاد شديد بأنني لن أستطيع احتمال البقاء تحت مقص الرجل اكثر من ذلك .. وأنا أعجب الآن هل هذا الشعور له علاقة بأول عهدي بالحلاق عندما قص حلقات شعري وأنا طفل ؟ ..

فأجاب دكتور مكسويل :

« أحسب أن هذا ممكن .. لان اليوم الذي قصصت فيه شعر رأسك الطويل ذي الحلقات كان من الايام الهامة عندك .. لانه رسب في عقل أمك رامزا — وأظنك ادركت ذلك ايضا — الى التغيير الذي طرأ عليك من التحول من صبية الى صبي .. ومن ثم كان عليك أن تواجه مسئوليات لم تكن تعرفها ، وهي دخولك المدرسة .. وقد عرفنا كم كان ذلك الطور شديد التأثير عليك في أيامك الاولى .. اول عهدك بالمدرسة .. لقد برهن على أنه أقسى وقت في حياتك كطفل ، ولم يهدأ روعك وتستقر الطمأنينة في قلبك الصغير ، الا بعد أن أجلستك المدرسة على حجرها ، ومثلت دور الام معك .. »

وبمساعدة مثل هذه « الدفعات » الكثيرة الرقيقة من دكتور مكسويل أصبح في مكنتي أن أكشف الغطاء ، وألقي الضوء على سلسلة طويلة من الحوادث التي تصور كراهة امي واحجامها الشديد في ان أنتقل من طور الطفولة الى طور النضج ! ولقد كانت تكره أن تسمح لي بقضاء عطلة الاسبوع في رفقة صحابي ورفقائي في المدرسة لانها كانت شديدة الغلو في وصف أخطار مغامراتنا وهي لا تعدو أن تكون غير قنص الطيور او تسلق الجبال .. وكانت تنتقد العطلات ، وتصفها بأنها نوع من الترفيه والترف الكثير !.. وتعارض اكثر وبصفة خاصة فكرة المعسكرات الصيفية «المخيمات»

حيث يسود الجو العائلى لصالح الاطفال !. كما أنها ظلت لسنين عديدة ترفض فى اصرار أن يكون لى « مصروف يد » مستقل ، رغم أننى أعرف ان أمى كانت كريمــة لا تضن على بأى شيء ، ولكنهـا كانت تزعجنى كثيرا لاضطرارى الى انْ أطلب منها كل مليم من مصروفى !..

وكانت ـ وهذه اكبر المصائب التى مرت فى حياتى ـ تبكى فى مرارة وهى تراقب نموى ، وتقدمى فى السن ، ثم تركى البيت الى الجامعة الداخلية !..

ولما كانت من أسرة كل أفرادها وصلوا الى ثقافة عالية ، فقـد كانت دون شك تود لابنائها هذه الدراسة أيضا .. ورغم ذلك .. رغم حبها لثقافة العالية التى سادت حيــاة أسرتها منذ أجيال ، كان كرهها لفراقى يتعارض مع تفانيها فى تلقى العلم !.. كانت تود الاحتفاظ ببنيها بجـوارها لكثرة حُنوها وأنانيتها فلم تكن تدخر وسعا فى تصوير الحياة بين ربوع « ميدل تاون » تصويرا ممتازا وترسم لنا صورا مخيفة عن التحول عن هذا الجو المشرق البديع بين الاهل فى المدينة ، الى جو الجامعة حيث لا اشواق ولا ابداع ولا أمان .. كما انها لم تفكر قط أو تناقش ابدا مع أحدنا أهمية ترك الأمور لنا لتساعدنا على خلق شخصية معتمدة على نفسها !. لم يكن يهمها أن يكون لاحدنا شخصية مستقلة او على الاقل تنمى فيه الرغبة فى أن يكون شــاعرا بهذه الشخصـــية وهو فى سـن السادسة عشرة او الثامنة عشرة !..

ولما جمعت شتات هذه الافكار .. او بالاصح مقدمات هـذه الخواطر التى كانت مبعثرة فى نقطة تجمع أو بؤرة اشـتد غضبى على أمى ، ولكن دكتور مكسويل حولنى الى الناحية المستقيمة ، وقادنى الى طريق الحقائق مرة أخـرى .. موضحا لى كيف اننى وأمى لا نلتقى الا نادرا الآن ، وأن سـيطرتهـا على أصبحت فى الحقيقة غير مهيمنة كما كانت قبل بلوغى سن الرشد .. أن أمى لا يمكن أن تتغير ابدا .. وهـذه حقيقة واقعة يجب أن أتقبلها ،

ولو أن طبيعة سيطرتها على فى صغرى تختلف عن محاولتها ابقائى تحت سيطرتها ونفوذها فى الوقت الحاضر .. وهذه الظاهرة يجب ان تكون مفهـومة وواضحة .. ومن الجلى أن دكتور مكسـويل يطلب الى أن أتعمق فى فهمى لها .. فقال :

« ان لديك قسطا كبيرا من المشاعر وليدة الاعتماد على الغير ، هو أمك .. هذه المشاعر الخاضعة الصـاغرة فى حاجة الى اعادة توجيه . انها تبرز واثبة من بين ثنـايا ماضيك المبكر وأنت طفل تعيش فى كنف أمك .. وقد أصبحت هذه ظاهرة عادية .. وكانت أمك تتوقع أن تتركهـا الدنيا دون ازعاج قابعة فى بيتها الصـغير الذى يسوده السلام .. وأحسب أنك حاولت أن تكون لك أسرة وبيتا ضمن نطاق المعمل الذى أنشـأته واسسته ـ على غرار أسرتك .. هذا بديع الى حـد ما .. ولكنـك لا تلبث ان تصطدم بالصعاب فى عملك اذا ما أخذت تطبق على الناس والمشاكل نفس الطرق التى كنت تطبقها او تفرض عليك وانت فى طور الطفولة .. مثال ذلك .. أليس من الجائز أن تكون بعض المشادات التى تقع بينك وبين رؤسـائك فى العمل نتيجة لانك تعتبرهم فى منزلـة الآباء ؟ فلو صحت هذه الفكرة لادركنا كيف نشأت تلك المنازعات والمشادات التى تنشب بينك وبين رؤسائك ، وهى تدل على أنك تميل أيضـا الى الدفاع عن مرؤوسيك .. وبعبـارة أصح تقاوم القوى وتناجزه بينما تقف الى جانب الضعيف وتسـنده !. ان هذا عمل يستحق أن يفحص ويسبر غوره .. يستحق أن يكون فهمه عميقا .. لانك ان استطعت أن تنشىء علاقة طيبة مرنة مع من هم معك فى العمـل كسبت نصف معركتك .. وبعبارة أوضح كنت قد بذلت كل مواهبك وذكائك فى سبيل العلم وتفرغت له .. ولذا اذا ما نشأ خلاف او نشب احتجاج بينك وبين رئيس لك فى العمل كان من شأن تلك العلاقة الطيبة التى غرستها فى نفـوس الآخرين ان تحمل عنك العبء الثقيل .. لانه ـ أى ذلك الرئيس لا يستطيع الا أن يجد سمة الصدق ظاهرة تماما فيما أديت من

أعمال فيرضخ مقتنعا .. وهذا واضح لانك اذا ما كرست نفسك لعملك والمشاكل بعيدة عنك من المحيطين بك »، وليس أمامك غير ما قد يمكن أن ينشأ بينك وبين رئيسك من بعض الاختلافات فى النظريات ، كان من السهل عليك أن تلقاه وتقنعه ، وهذا سهل ميسور لانك واثق من اتقان عملك الذى تم فى هدوء . ولا شك فى نجاحك وكسبك المعركة » ..

ولكنى بعد كل هذا القول من دكتور مكسويل بقيت عندى الرغبة فى أن أنشد من أعتمد عليه .. الرغبة فى أن أجد من يرعانى .. وظلت هذه الرغبة ملازمة لى فى المدة الباقية من علاجى .. وكان دكتور مكسويل لا يكف عن ملاحقتها دون هوادة منذ بدأ يعالج هذه العقدة .. وقد أوضح لى بأنه ولو أن علاقتى بوالدى قد انتهت ، الا أن طور الطفولة وأوضاعه كان لا يزال يؤثر على حالتى النفسية ويهيمن على أعصابى !.. وكان من الجلى أننى أمجد واشيد بموضوع الاعتماد على الغير ، لان هذا الاعتماد انما ينصب على أمى فقط . وهى التى اكن لها حبا عظيما ، واحتراما لا يقدر !. فقلت لدكتور مكسويل :

« انك على حق تام فيما ذكرت عن رأيك الخاص فى ظاهرة الاعتماد على الغير التى ما زالت تلازمنى يا دكتور مكسويل .. وفى استطاعتى أن أسترجع بعض ذكريات الامسيات العديدة التى كانت أمى تخلو فيها الى لتقول لى فى الحاح واغراء كم يكون من المبدع المدهش أن أظفر بزوجة وارثة !. هذه وجهة نظرها فيما ترجوه لبنيها من زيجات .. يجب ان تكون الزوجة غنية أما الحب فلا قيمة له فى اعتبارها ، ولو أن ذكره كان يأتى على لسانها ولكن فى الدرجة الثانية من الاعتبار .. وها أنذا الآن أرى شيئا لم أكن أتبينه فيما مضى لعدم وضوحه بالمرة ان أمى حقا كانت تنشد لى الضمان العائلى فى حياتى حتى على حساب الاعتماد على زوجه ثرية وعلى أسرتها .. ولكنها كانت تنشد أيضا ضمانا لها هى الاخرى .. وهى أن يكون أبناؤها أثرياء ، اصابوا الثراء من وراء

زواجهم من وريثات ».

وقد وافق دكتور مكسويل على ان امى فى هذا التصرف او هذه الرغبة التى تهدف اليها كانت كبقية الامهات الاخريات ، شديدة الاهتمام بان تضع هذه الرغبة موضع الاعتبار الاول باستمرار والحاح ، على انها السبيل السديد الى الضمان العائلى ورغد الحياة .. وقال :

« أن القليل من المال فيه الكفاية ، والقناعة شيء طيب ، ولكن عادة التهافت على كسب الثروة ، والاهتمام بالحالة المالية .. أى بعبارة أصح لغة الارقام ، كانت دائما متأصلة كالمرض الخبيث فى احساسات الافراد وعواطفهم .. وأنا اشك بعد الذى سمعته منك عن الوضع الذى كانت أمك تتخذه لنفسها مدفوعة بشدة حرصها على سعادة أبنائها وضمان مستقبلهم .. أشك فى أنك انت نفسك قد اكتنفت حياتك بعض هذه المخاوف التى تدعوك الى نشدان الضمان العائلى بواسطة الثروة لدفع عوادى الزمن ! .. ولكن الفرصة أمامك لاستئصال الاشكال العصابية التى لديك بشأن المال . وهذا من شأنه ان يكون لك بمثابة خطوة هامة تخطوها نحو حياة مليئة بالثراء والروحانية والعواطف فى نطاق بيئة تهتم بالارقام .. بالمال .! » .

فهل هذا حق ؟. هل مع ما لدى من كراهية للمال ، أو عدم التهافت على الثروة بدعوى الضمان العائلى كما تريد أمى قد انتقلت الى بعض العدوى منها .. لا أظن !.. لاننى أذكر كثيرا من القصص أو الفكاهات عن زيجات المال وهاهىذا واحدة منها :

« قدمت « الخاطبة » الشاب الذى ينشد الزواج الى العروس الثرية .. فما كاد يرى الفتاة حتى اعتورته دهشة ، وهمس فى أذن الخاطبة قائلا : « لماذا أتيت بى الى هنا ؟.. انها قبيحة ، حولاء وأسنانها سوداء .. وعلى عينيها غشاوة ! » فلم تلبث الخاطبة ان قالت : « انى أسمعك بصعوبة .. تستطيع أن ترفع صوتك فانها صماء ! » فما كاد دكتور مكسويل يسمع هذه الفكاهة حتى قهقه

طويلا !

كانت هذه احدى قصص زواج المصلحة .. ولكنني لم أستطع أن اقنع أمي بأنها على خطأ الا بصعوبة كبيرة ، وبعد مناقشات طويلة

وقد اقتنعت وأدركت انه من الخير لي أن اترك وشأني ارسم طريقي في الحياة الزوجية كما فعلت في عملي .

لقد فهمت أمي أن مستقبلي العائلي يجب أن يكون في يدي أنا وأنه من الجور أن تعارض التيار الذي أسير معه في حياتي الشخصية .. وكان من شأن موقفها هذا معي أن قرب ما بين نفسينا أكثر واكثر !..

لقد كانت في طور طفولتي وطور مراهقتي تتحدث الى والى أخواتي واخي عن حياتها الماضية وهي في أوج شبابها ، وعن اهليها القدامي وأهل أبي .. وكانت تشعر بأننا في حاجة الى معرفة ذلك التاريخ الذي كان السبب المباشر لتمسكها بالقديم الى حين .. ولما فهمت مني انني في شوق لمعرفة ذلك الماضي ؛ لمعرفة قصة حياتها سارعت متدفقة تسكب سيلا منهمرا من تاريخ أسرتها الكبيرة وأسرة أبي وقد سرها اهتمامي لمعرفة ذلك التاريخ..

وفي الحق قد ساعدني سماع ذلك التاريخ على الحصول على صورة كلية عن أسلافي وثقافتهم ، مما أضاف الى حياتي لونا جديدا وعمقا اكبر .

* * *

الفصل الثالث عشر

الجنس فى الطفولة والمراهقة

« عمره نصف عمر الزمن »
چون بورجون

لقد تقدمت للعلاج النفسي وأنا مليء بالشكوك ، متوجسا ريبة من أسلوب ذلك العلاج وسلامة طريقته .. وكان أشد ما أخشاه هو أن تكون نتيجة ذلك العلاج نقصا أو ضعفا فى قدرتى الجنسية او القضاء على رغباتى نهائيا ، أو ربما جعلت منى شخصا غير مهتم بغرائزه الجنسية كما هى الحال مع العقل الآلى الذى لا يشعر بأى اهتمام لما يقوم به من حل للمسائل العويصة التى يؤديها بدلا من المخ الطبيعى !.

فلما أفضيت أخيرا بمخاوفى هذه الى الدكتور مكسويل ، برهن على أنه مطمئن وشديد الثقة بأن العلاج النفسى لا صلة له أبدا بما يسبب هذه المخاوف المزعومة . وبعد أن هدأ من روعى وأزال جزعى وخشيتى من ضعف نشاطى الجنسى ، ذكرنى بأن بعض المرضى يخشون من العكس اذ يظنون أن التحليل النفسى سيزيل ما لديهم من نقص جنسى ، ويزيد من ثورة الغريزة الجنسية فيهم .. وقد أكد لى دكتور مكسويل بأنه مطمئن الى أن التحليل النفسى لا تنتج عنه مثل هذه الحالة التى اتحدث عنها .. ولا يمكن أن تكون هناك نتيجة مثل هذه ابدا ..

وكنت كذلك قد توقعت أن أركز على المشاكل الجنسية خلال جلسات تحليلى النفسى .. ومما عرفته من نقاش مع بعض هواة التحليل النفسى صرت معتقدا ـ تحت تأثير نقاشهم المقنع ـ أن الدكتور مكسويل سوف يبدأ اجراءاته التحليلية باختيار كلمة مناسبة مكونة من اربعة حروف طالبا منى أن أذكر كل الخواطر التى تستدعيها هذه الكلمة فى جلاء وصراحة .. وبعد الانتهاء من هذا التسلسل فى المستدعيات كنت أتوقع دائما ان يطلب منى دكتور

مكسويل ان أروى حلما رأيته .. وعلى أســاس المعلومات التى استقيتها من الهواة ، كنت أتوقع ان يكشف تفسيرَ الرموز الجنسية التى يتضمنها الحلم عن اتجاهاتى الجنسية . والحلم التالى يوضح ذلك :

« أنا فى سفح أحد التلال حيث كانت معركة ناشـبة .. وكنت أحمل حربة طويلة .. وتلتف حولى جمــاعة من الجنود .. وكان العدو متراص الصفوف فوق التل .. وأفراده من الفرســان ... وكان يقود هؤلاء الفرسان زعيم معروف من الهنود الحمـر ... فأطلقت حربتى عليه » ..

وكان يخيل الى أنه بمثل هذا الهجوم ينحسر اللثام عن نزواتى الجنسية فتقطع وتستأصل وتزول كل الممنوعات والمنهيات التى تكتنف ويحل مكانها النقاء والطهر .. ولكن أسلوب دكتور مكسويل كان على النقيض .. مخالفا لاعتقادى وتخيلى .. فهو لم يفرض على موضوعا جنسيا ، ولم يعمد للاشارة الى كلمات جنسية . فاذا كان الموضوع جنسيا بطبيعته ، فاننا نناقش مسألة الجنس . ونفس الشيء بالنسبة للاحلام ، فاذا قادت الخواطر الى صياغة جنسية ، فان هذه الخواطر تخضع للتحليل

غير أن دكتور مكسويل كان يوضح فى جلاء أن الغريزة الجنسية ليست لها شخصية منفردة ، ولكنها بالاعتماد على الغير والتعلق به و « الشعور بالعداء » و « كره الاب » وما الى ذلك من مسائل أخرى تعرفت عليها .

وكنت فى أول عهدى مع دكتور مكسويل أفكر خطأ .. كان لدى اعتقاد خاطىء عن الطريقة التى تتبع فى علاج الجنس نفسيا .. ووجدت أن غيرى من الافراد الذين كانوا يعالجون نفسيا هم كذلك فريسة ذلك الاعتقاد الخاطىء .. وقد كنت واثقا قبل أن أبدأ التحليل النفسى « أن حادثة واحدة من مشاهد حياتى الجنسية هى التى يمكن رفع الغطاء عنها وكشف مكنونها .. وان هذا الكشف من شأنه أن يزيل على الفور كل عوارض القلق مفسرا تفسـيرا

شاملا سبب ما يثير أعصابى وتوترها ليحل مكانها فى كيانى هدوء شامل ، واسترخاء عام فى مشاعرى

وبرغم اعتقادى ان الحادثة المخبوءة أو مفتاح مشكلتى الغامضة ذو أصل جنسى فاننى لم استطع تحديد طبيعتها بدقة

كانت لدى فكرة غامضة بأن هذه الحادثة لابد أن تكون قد نشأت عن ممارسة العملية الجنسية « المثلية » من « اللواط » أو « السحاق » أو عن انزلاقى الى العادة السرية أو اكتشاف أننى كنت أسترق النظر لرؤية عملية جنسية !. ولهذا فاننى كنت أحاول اخفاء هذا الحادث وطمس ذكراه نظرا لانه شائن مزر

وقد سألنى دكتور مكسويل عندما بدأ يعالجنى أن أدفع اليه بعناصر اضافية لتعينه على تفهم مركزى من الجنس ، وتمكنه من رسم صورة لسيرة حياتى بكل نواحيها .. وكنت فى الواقع لا أستطيع أن أعطيه معلومات شاملة فى وصف قصير ضيق الرقعة كالذى يطلبه .. لان الوصف الذى يجب أن يتسع لسيرة حياتى لابد أن يكون مترامى الرقعة ، جامعا لكل أطراف تاريخ حياتى .. كذلك كانت هناك من الحوادث مالا يمكن ذكرها دون ازعاج لى ، اذ أن وصفها فيه احراج شديد لى ، وحيرة فائقة الحد ... خصوصا وأنه يريد الجانب المحرج من حياتى الجنسية ومغامراتى فى هذه الناحية ..

وقد لاحظ دكتور مكسويل موقفى الحرج ، فاقترح أن يؤجل هذا الى مابعد زوال توتر اعصابى وارتباكى

وفى الواقع لم أكن أعرف عن ثقة تامة متى بدأت مشاعرى الجنسية .. هل كان ذلك الشعور ــ وانا فى الثانية عشرة من عمرى ــ عندما لمست صدر فتاة تكبرنى وشعرت عند اللمسة بحرارة تغمر جسمى وهزة تتمشى فى كيانى تنم عن رغبة جنسية متدفقة ؟. أو كان ذلك وانا فى التاسعة عشرة عندما ــ بعد قضاء ليلة عربيدة من رقص وشراب وموسيقى ــ ذهبت الى الفراش مع « تيريزا » وبعد بضع ساعات عدت الى اليقظة فوجدتنى انا

وتيريزا فى عناق وعراء وقد أدركت اننا قضينا ليلة حمراء مارسنا فيها الاتصال الجنسى ؟!..

ولكنى أحسب اننى لم أوفق بعد لمعرفة الوقت بالضبط .. وربما كان أجدى لو رجعت الى الوراء سنوات كثيرة .. الى الوقت الذى كان عمرى فيه ست سنوات .. الوقت الذى كنت فيه أنا ورفاقى الصغار من الجنس الثانى يمس كل منا العضو التناسلى لرفيقه !

وهكذا كنت غير واثق متى بدأت لدى الرغبة الجنسية ..ولكنى أميل الى ترجيح أنها نشأت وتدفقت منذ تلك الليلة مع « تيريزا » التى كانت أكبر منى سنا واكثر تجاربا ، اذ كانت فى الخامسة والعشرين وأنا فى الحادية والعشرين

وهناك حالات أخرى منذ سن السادسة ثم فى طور المراهقة لاأجد فى نفسى القدرة أو الجرأة على ذكرها لانها متصلة بسيرة فتيات من الجيران والاقارب ، وقد كان كل منا يشعر بعد زوال الشعور اللاذ بأنه ارتكب اثما !.

وأذكر أنه بمرور الاعوام وقد كبرنا ، كانت احدي شريكاتى فى الاثم وقد بلغت الثانية عشرة تبتعد عنى ولا تعيرنى التفاتا كما لو كان ماتم بيننا من قبل قد حدث وهى فى حالة لاشعورية !. وظل السر بيننا غير معروف حتى نزحت الى بلد بعيد جدا .. والمهم أن الامر ظل بيننا سرا لم يطلع عليه أحد ..

وقد تذكرت أثناء حديثى مع دكتور مكسويل شارحا فى اسهاب تاريخ حياتى الجنسية ، مغفلا الكثير مما يجب أن تطمس معالمى ولا يطلع عليه الغير .. تذكرت مزحة ذات مغزى بعيد المدى فقلت له :

« دكتور مكسويل .. هل تعرف شيئا عن قصة الغلام الذى لاتزيد سنه عن الثامنة ؟. لقد سأل أمه فى لهجة جدية : « أماه .. هل تحمل الفتيات الصغيرات وينجبن اطفالا ؟ » .. فردت عليه قائلة : « كلا لايمكن ذلك وهن دون العاشرة » .. وعاد يسألها السؤال نفسه مرة ثانية ، وتلقى نفس الجواب وسألها مرة ثالثة فردت عليه مؤكدة

وطلبت اليه أن يكف عن مضايقتها بمثل هذا السؤال السخيف !. فركض الى الخارج ليطل من الشرفة وينادى على فتاة صغيرة ليقول : « اطمئنى ياسالى .. لا خوف البتة ! » ..

وهناك حادثة اخرى تتصل باحدى قريباتى .. من بنـــات عمومتى .. جاءت فى زيارة شقيقاتى ، وبرغم القرابة ، فقد كانت هى اول مرة تزورنا فيها .. وكنت فى سن الثالثة والعشرين وهى اكبر منى بعام أو عامين .. فطلبت منى شقيقاتى أن أصحبها الى المرقص فقبلت برغم ماكان يبدو فى مظهرها من جمال فاضح ، وحرية متطرفة ، وسمات صارخة تنم عن شخصية فذة .. وبعد أن رقصنا وجرى بيننا حديث طويل شيق اظهرت لى فى وضـــوح وصراحة أنها تواقة الى خطوة أخرى !.. وقد نال هذا موافقتى انا الآخر لولا صلة الدم بيننا .. ولو انها بعيدة .. فشعرت بتوتر نفسى وقلق ورغبة فى الفرار منها !

هذه الخواطر التى برزت أثناء مناقشة مغامراتى المبكرة فى طورى الطفولة والمراهقة قادتنى الى حياتى الجنسية وتعلقى بأمى وأخواتى .. وقد قال لى دكتور مكسويل فى شرح واف صريح أن أكثر مالدى من مشاعر جنسية هو مايقال عنه نفسيا « الشهوة الغيرية » اذ أن الطفل الذكر يحب والديه بالتساوى ، ثم بعد مضى وقت يتعلق بأمه ويهمل والده قليلا .. ومتى نضج يكره أن يكون له شريك فى حب أمه وتعلقه بها ومن هنا تنشأ غيرته من أبيه ويظن أنه يحقد عليه ، ولكنه فى الوقت نفسه يخشاه !.. وهذا مايسمى بالموقف الاوديبى .. ثم تمر بالطفل مرحلة الكمون التى تمتد حتى المراهقة ، وهذه المرحلة هى التى تبزغ فيها الميول العقلية والاجتماعية ، ويعتورها هدوء الانفعالات التى كانت ثائرة صاخبة فى طور الطفولة المبكرة .. ثم تأتى بعد ذلك المراهقة ذات المشاعر الجنسية التى ينبثق منها هدف الغريزة النهائى وهو الرغبة فى التناسل .. اذن فالمراهقة هى أولى الخطوات التمهيدية الى حياة جنسية سليمة .. .. هذا ما قاله دكتور مكسويل . وقد تبين لى انه صور الحقيقة

التى كانت لدى كاملة .. لقد كنت أفترض أن رغبتى المكبوتة وانا بعد فى طور الطفولة فى أن أمارس حبى الجنسى لامى يمكن قياسها وتقدير درجتها بما أشعر به من جاذبية نحو النساء الاكبر منى سنا .. وقد خيل الى أن حادث علاقتى الجنسية مع مدرستى «مرجريت» فيه المفتاح المهم لما ظهر من رغبات جنسية لدى اثناء التحليل النفسى .. والواقع أن الجاذبية وعقدة الذنب نحو النساء اللاتى يذكرننى بأمى واخواتى كان لهما تأثير شديد على

وقد فسر لى دكتور مكسويل « ان حب الطفل أو المراهق أو الشاب لامه واخواته وتعلقه بهن ليس فيه اشتهاء محرم أو رغبة فاسقة .. وانما هو غريزة جنسية خالية من الوظيفة التناسلية أو الاشتهاء المحرم .. ومن مظاهر الغريزة الجنسية أيضا ، اللذة التى يجنيها الطفل الرضيع من مص أصابعه ، أو من الدفء والراحة بين أحضان أمه .. ومن مظاهر هذه الغريزة فى المراهقة ، أن يمد المراهق بصره ليتجسس على فتاة عارية أو عملية جنسية !. وبعبارة أعم ان كل لذة ولو كانت بعيدة عن فكرة التناسل هى من مظاهر الغريزة الجنسية » !..

وبهذا اطمأن قلبى ، اذ كنت اشعر أن تعلقى بأمى أو المحرمات من أهلى فيه جرم خلقى شنيع لا أغتفره لنفسى .. وما هى الا لذة جنسية بريئة كمص الطفل لاصابعه

وذكرت لدكتور مكسويل قصة مغامرة لم تتم استرجعت حوادثها رغم مضى وقت طويل .. وتتلخص فيما يلى : انضمت الى موظفى المعمل الفنيين فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ذات جمال يلفت الانظار ، وشعر نحاسى ، ووجه مستطيل ، وقامة فارعة تجعلها شبيهة بوالدتى الى حد بعيد وهى فى أوج شبابهـــا .. وكانت « جويس » ــ وهذا هو اسمها ــ محبة للغزل ، ذات أنوثة صارخة مثيرة للحب .. ومع هذه الصفات لم تكن ذات دراية تامة بعملها . أو بعبارة اوضح لم تكن تهتم كثيرا بعملها الفنى ، ولا تجد فى الكيمياء لذة أو رغبة مشبعة .. كانت انثى من الطراز الذى يدفع

بى الى الخروج عن محيط نشاطى الفنى ، ويناوىء أسلوبى الجدى وانا أمارس أبحاثى العلمية .. ولكن رغم هذا فقد ألفيت نفسى أسعى الى التقرب منها واستمرار بقائها بجوارى دائما فى العمل أراقبها وهى تعمل ، وأصغى الى صوتها ، فأجد متعة ولذة تطغى على كيانى وتهيمن على مشاعرى . وكان أن أصبح كل يوم يمر بنا يزيد من عرى الالفة بيننا وينمى رغبتى فيها !. وما لبث الحال أن تطورت سريعا . فكنت اذا ما خلوت بها أتناول كلتا يديها وأغمرها قبلات حارة فأشعر أنها تهتز بين يدى وتختلج وتكاد أن تخور قواها ، ولكن كان لتماسك من جانبى يضفى بعض الحرص والحذر على الموقف !..

وأخذت تتعمد التأخير بعد انصراف مساعدى فى المعمل وهى شاعرة بأن هذا العمل من ابحاثى .. وما اكاد اختلى بها حتى أظفر بعناق حار يجد فيه كلانا متعة لاتقدر ، ومن ثم تنصرف وهى تكاد تتهاوى من نار الكبت التى تعتمل فى بدنها ومشاعرها .. وكاد الامر ينتهى بنا الى الخضوع لجبروت الرغبة التى لم يعد فى الاستطاعة مقاومتها ، وينتقل بنا الى علاقة أعمق ..

ولكنى ثبت فى موقف المناضل ، فلم نكن نجتمع الا فى المعمل بعد انصراف المساعدين ، ويسود الجو نوع من المتعة الحارة المحدودة ، ولكن فيها ارضاء واشباعا لحد ما ..

لقد كنت طيلة سنين عديدة متماسكا بمبدأ عدم انماء اية علاقة جنسية بينى وبين أية امرأة تعمل معى ، اذ كنت أقدر نتيجة ماينشأ عن ذلك من تورط أو احراج .. ولكن عندما زاد اشتهائى ورغبتى فى « جويس » ووصل الى الذروة تلاشى ذلك المبدأ وأصبح لامعنى له .. وقد ساعد على تعجيل تلاشيه ما كان لديها من عدم خبرة بالعمل ، ومحاولتها تغطية ذلك باظهار خضوعها واستسلامها لى .. وكدت أهم بها مجازفا بعد أن فاض اناء كبتى وصبرى ، ولكنى لم أفلت زمام السيطرة . حتى اذا ما أزفت الآزفة رتبت لقاء ليليا انالها فيه وهى راغبة .. ولكن حدث فى نفس اليوم الذى

كان سيتم فيه اللقاء ان فنيت تلك الرغبة الثائرة وزالت بغتة !.

كنت فى ذلك اليوم أقوم بتجارب فى ناحية من المعمل لا يرانى فيها الذين يعملون فى أجزاء المعمل الاخرى ولكنى أراهم ..وكانت « جويس » فى القاعة الرئيسية تتحادث مع زميلة أخرى .. وكان كلاهما يتجادلان فى غضب وحنق فى شأن من شئون العمل ، وكل منهما تدعى أنها المختصة .. واذا بها تثور ثورة عارمة وتنقلب سحنتها الى شكل كله قبح ، وتنطلق من فمها الالفاظ النابية الشائنة كأنها طلقات مدفع رشاش !. رأيتها وقد انقلبت الى تمثال من القبح وسمعت سبابها كأنها رجل من حثالة المجتمع !. فاذا بى اشعر كأن المعانى بردت كما لو كان أصابها جليد ولم أعد أحس بها ، وفنيت تماما رغبتى فيها واشتهائى لها !. ووجدت أن من المؤلم ان اقترب منها .. لقد زال كل ماكنت أشعر به نحوها من رغبة جنسية صارخة ، واشتهاء لاحد له !.

ومن حسن الحظ لكلينا أن نقلت « جويس » الى ادارة أخرى فى الشركة بعد الحادث مباشرة .. ولكنها بعد ذلك عملت فى شركة أخرى ولم أرها بعد ذلك أبدا ...

وفى الوقت نفسه ولمدة أعوام عديدة ظللت فريسة الحيرة الشديدة تجاه هذه التجربة القاسية .. ظللت أتساءل : كيف ان رغبتى الملتهبة واشتهائى الصارخ لهذه الفتاة قد أصبحت جذوته رمادا بمثل هذه الحادثة التافهة ؟.. لم تكن هذه أول مرة أرى فيها شجارا بين النساء ، ولكن لم يحدث لى مثل ماحدث من تأثير بالغ بعد أن رأيت « جويس » على حقيقتها فى هذا الحادث التعس !.. »

وقال لى دكتور مكسويل معقبا ان شخصية طفولتى لم تتغير أبدا وبين لى مثلا أن اشتهائى العلاقة الجنسية مع المدرسات خصوصا « مرجريت » دلت على اننى لم أنضج بدرجة كافية واننى لا افرق بين الفتيات العاديات وبين من يقاربن أمى سنا .. وهذا الصراع جعلنى دائم التنقل من فتاة الى اخرى باحثا عن

مغامرة جنسية جديدة أبعد مدى من المغامرات العادية !

انه ما زالت أمامي رحلة طويلة شاقة قبل أن أستطيع الوصول الى تلك المكانة العالية من الحياة حيث يعيش الانسان فى كنف الحب ، والزمالة والجنس متمثلة فى علاقة ناضجة تماما .

* * *

الفصل الرابع عشر

الجنس فى الحياة الجامعية

« فى ذلك المحبس ، حيث
الحياة الجنسية تبدو غامضـــة
مبهمة محيرة ميئوسا منها »
لويس آنترمير

وقد قضيت مرحلة الاعوام الاربعة وقلبى مفعم بالسرور لتفوقى جنسيا خلال سنى الدراسة الجامعية عندما كانت توترات نفسى الانفعالية العامة مقبولة ومحتملة كل الوقت أو أغلبه ..

وقد قضيت مرحلة الاعوام الاربعة وقلبى مفعم بالسرور لتفوقى فى الدراسة.. أو بالاصح لشعورى بسعادة غامرة وأنا أمارس دراساتى التى كنت فيها متفوقا عالى المستوى ..

وكان نجاحى فى الانتخابات لتمثيل زملائى فى سنى الدراسة من شأنه أن يضعنى فى موضع الزعامة على الطلاب .

وفوق ذلك فقد كانت لى صداقة وطيدة الاركان مع زملائى الطلاب ، كما كانت لى غراميات كثيرة قصيرة المدى مع الفتيات ، ولحظات خاطفة من المتعة .. ولكن من المؤكد أن بعض التوترات والهواجس المزعجة كانت لاتزال مصرة على مصاحبتى .

ان المناهج الدراسـية فى المدارس الثانوية كانت سـهلة يمكن قطعها فى غير مشقة لان غالبية المواد الدراسية كانت تدرس بطريقة « التغذية بالملعقـة » .. فلما التحقت بالجامعـة أصابتنى الحيرة والدهشة من « مقاييس » الدراسة فى الجامعـة وعلو مستواها العلمى ، وما تتطلبه من جهد بالغ وعمل متواصل .. خصوصا متى كان الانجاز يتطلب مجهودا فرديا دون عون ..

وقد استطعت بعد قضاء العديد من الليالى فى العمل المضنى أن أتبين أننى متمكن من مواد الدراسة .. ومع ذلك فقد كنت طيلة

أربعة أعوام الدراسة أشعر بتوتر ، وعدم اطمئنان أثناء فترات الاختبارات !.

وكان رفاقي فى القسم الداخلى ، قد أتوا غالبا من بلاد صغيرة . وقد أحدقت بهم الحيرة لموقفهم الجديد الذى لم يعتادوا عليه مثلى ، ولذا لم يكن هناك ما يشجع على أن يكون تبادل المرح أو الاطمئنان متوفرا بيننا .. كما لم تنشأ بيننا ألفة أو صداقة سريعة .. وكانت الجامعة واقعة فى مدينة كبيرة لا أجد فيها أصدقاء ولا أقارب .. وكانت عنابر النوم متسعة كما كانت قاعات المحاضرات ، والمعامل ، وقاعات المطالعة مزدحمة بالعديد من الطلاب المتوترى الاعصاب مما لايستطيع المرء معه أن يكون أصدقاء .. ولذا فقد كنت أشعر بوحدة يائسة بعيدا عن بلدى وأهلى ..

ولم يكن العثور على الاصدقاء أو خلقهم سهلا ميسورا ، اذ يحتاج الأمر الى وقت لتكون الصداقة وكانت توترات نفسى التى نشأت لدى فى أول عهدى بالتعليم الجامعى قد جعلت من الصعب على أن أتنفس الصعداء ولو لساعة واحدة فى اليوم .

وكانت وحدتى قد تحولت الى قلق تصاحبه مشاعر قذرة دنيئة أشعر معها أحيانا بحالة من التقزز والغثيان تصيبنى لمدة بضع ساعات ـ والاغلب أن هذه كانت أولى علامات أصابتى بقرحة المعدة التى أصبحت حقيقة واقعة لمدة سبع سنوات كاملة.. كاملة ..

هذه الاشكال والانماط من الوحدة ، وتوتر الاعصاب ، والمشاعر القذرة ، وانقباض النفس ، ظلت ملازمة لى خلال السنوات التى قضيتها فى جامعة « ميدل وسترن » .. وفى بعض الاوقات كانت المشاق التى تعترضنى تخف نوعا ما أو تزول مؤقتا بما أصيبه من نجاح فى دراساتى وباطراد معرفتى بالحالة الاجتماعية والثقافية داخل الجامعة ..

وقد تبين لى أن حياتى فى الجامعة بعيدا عن موطنى ، فيها تحرر من قيودى ، وزوال السيطرة التى كان أبى يفرضها على ..

زالت تلك القسوة التى كانت تصغر من شأنى ، وتطمس شخصيتى، فأصبحت حرا وقد تحطمت أصفادى ، منطلقا كماء النهر ، متدفقا الى مصيرى المحتوم الذى بين يدى ـ وحدى ـ أن أرسمه بنفسى

وكنت أود أيضا ان استقل استقلالا تاما شاملا .. ومعنى هذا أن ارسم طريقى المادى أيضا كما ارسم طريق تحررى النفسى .. وهذا يتطلب منى جهودا جبارة لايذللها الا قيامى بعمل ما وانا فى عطلة الدراسة أربح منه مالا يعيننى على مطالب الجامعة .. ولكننى اخيرا طلقت هذه الفكرة ، لان هذا العمل خليق بأن يوسع شقة الخلاف بينى وبين والدى ، ويزيد من الجفوة بيننا ..

وقد كان فى الوضع الحالى ـ وهو الذى نشأت عنه مسئوليات جديدة وانفعالات نفسية نتيجة التحول من حياة بلدنا « ميدل تاون » الى الحياة الجامعية ـ كان فيه طبقات مكدسة من الصراعات الجنسية المتضاربة .. كانت تجاربى فى المدرسة الثانوية ـ الى حد بعيد ـ مرضية لى أجتماعيا .. فيها اكتفاء وقناعة ..

لم تكن هناك مسئوليات أو أخطار جدية من العناق أو المغازلة بين الشبان المراهقين والفتيات الصغيرات .. وكان فى هذا الكفاية لى ولرفاقى فى الدراسة ـ الا فى النادر القليل ـ وقد قبلوها عن طيب خاطر قانعين .. أما أولئك الفتيان الذين كانوا « ينغمسون » فى مغامرات جنسية فعلية كاملة .. بالاضافة الى بضع فتيات دار الحديث عنهم بأنهن يقبلن الوصول الى نهاية المطاف جنسيا .. هؤلاء وأولئك كانوا فى اعتقادى واعتقاد المعتدلين من الرفاق أقلية من الشباب الجرىء الطائش ..

ولم يكن الضغط الاجتماعى الموجه الى طلبة وطالبات التعليم الثانوى منتشرا كثيرا فى الجامعة بل يمكن القول بأنه لم يكن له وجود ..

وكان رفاقى فى « عنبر النوم » بالقسم الداخلى يفخرون بأنهم نالوا متعة جنسية تامة . ويظهرون ازدراءهم من الذين يقنعون بأقل من ذلك .. وكانت هذه الحالة مما يصعب على أن أقرر فيهـــا

اختياري .. كان اختيارا شاقا ليس من السهل على أن أحدده وأنفذه .. وكانت توترات نفسي تلح على وتدفعني ولم يكن في مقدوري أن أبقيها في مدارها الذي كانت تسير فيه خلال طور الدراسة الثانوية ..

لم تكن لدي خطة محددة للعمل .. كما لم تكن لدي خبرة سابقة ولا حتى رأي ، أو نظرية ، او فلسفة لترشدني الى الطريق .. كان والداي يتجنبان الخوض معي في موضوع الجنس ، ويكرهان النقاش فيه !. وكانت الحيرة التي تبدو في حركاتهما ونظراتهما وهما يهمسان عن فضائح العلاقات الجنسية التي تحدث بين الجماعات توتر مشاعري ، وأدرى أنه ليس من الصواب أن أفضي بمشاكلي اليهما ..

وكان أخي الأكبر يلقى منهما نفس المعاملة ، ولهذا السبب كان الخجل يسيطر علينا كلينا بحيث لا نملك القدرة على التحدث أو النقاش في مسائل الجنس ولم نستطع هذا الا بعد مرور بضع سنوات ..

وخلال الدراسة الثانوية لم تتح لي الفرصة لمناقشة الموضوع مع أي رجل له دراية ، كعالم نفسي أو طبيب .. وكانت المواد التي تدرس لنا عن الثقافة الصحية مرسومة بحيث تتجنب الخوض في المسائل الجوهرية بصفة عامة !..

ولكن الآن .. في الجامعة . أخذت أبذل جهودا كبيرة ومحاولات تهدف للدخول في نقاش في هذه المسائل المزعجة مع مستشاري أو ناصحي المسئول ، وفي أيام العطلات مع طبيب العائلة .. ولم يكن أحدهما متجاوبا معي تماما لانني لم أكشف نفسي لهما تماما ولم أفض لهما بمشاكلي في صراحة ووضوح ، ولم أمكنهما من الالمام بالمسائل على وجه واف ..

وصارحت دكتور مكسويل بأنني لو أسعدني الحظ بلقائه في ذلك الوقت الذي مضت عليه بضع سنوات لوفرت على نفسي تعاسة وشقاء تلك السنين ..

وهكذا .. وأنا خالى اليدين من أية مساعدة من ذوى أو المحيطين بى تعطينى فكرة مقنعة عن الاتصال الجنسى وتشبع رغبتى فى التعرف على كنهه ، ألقى بى فى مضمار النقاش المجهز بوسـائل الجامعة ذات القيود الجامدة الصارمة .. وهذه الجلسات الجامعية كان من النادر أن تبدأ بنقاش مباشر عن الجنس والمخالطةالجنسية ، ونادرا أيضا ما تنتهى بنتيجة مجدية لان مصيرها فى النهايةالفشل التام ..

كان الموضوع يعرض للنقاش على أساس من الامثلة المضروبة أو المكتوبة كأسانيد أو توصيات عن « طريقة الاتصال الجنسى فى الحياة » .. ثم ذكر مايتعارض معها .. وهذا هو كل ما كانوا يفخرون بأنه أحدث مالديهم من تجارب !.

وبعد أن تنهك هذه المجموعة من الطلاب نفسهـا بذكر مامر بها من حوادث وتستنفد ما فى جعبتها من مزحات ونكات تتعلق بالجنس نخرج من هذا المضمار لاتملأ رؤوسـنا الا سخافات ، وفضائح ، ونكات ثقيلة كلها قذارات بعيدة عن الذوق والاجتماع والعرف المحترم !.

وكان بين الذين يتولون النقاش شاب أثر على تأثيرا كبيرا اسمه « جورج » .. كان أحد المعارضين له من جماعةالشبان المسيحيين ويدعى « فريد » يصفه أثناء النقاش بأنه « شهوانى » لاشىء فى رأسه الا الاتصال الجنسى !..

فلما نهض « جورج » للتعقيب عليه كانت لهجته فى الـكلام متراخية هادئة .. كان أسلوبا من أهدأ الاساليب التى سمعتهـا من قبل .. وقال :

« لقد غاب عن بال « فريد » اننى وهو شخصان مختلفان » .. ثم أخذ يدلى بفلسفته بطريقة محكمة .. فقال مما قال : « أنا راغب أبدا فى النساء .. وهن يبادلننى هذه الرغبـة .. احترمهن ولا أضعهن موضع التسفيه كما يفعل الافاقون لان لهن كرامة عندى ... ان بعض الشبان يقولون انهم ينالون قسطا أكبر من المتعة وبأقل

نفقة فى بيوت الدعارة .. ولكنى لا أوافق على هذا القول .. ان « الاتصال الجنسى » أما أن يكون لهوا أو صداعا ، وأنا أريد به المتعة لا الصداع !.. »

كانت كلمة « جورج » خطبة طويلة .. فلما أخذت افكر فيها واسترجع كلماتها قررت أن أسير فى الدرب الذى يسير فيه !..

وهكذا بدأ اتجاه آخر فى حياتى .. وكان أكثر مراحل حياتى امتلاء بالمغامرات الجنسية التى فيها متعة تكتنفها الاخطار وليست كما كانت سهلة فى مرحلة المراهقة فى الدراسة الثانوية ... الآن أصبحت هناك أخطار حقيقية ومخاوف من الامراض السرية والحمل، وما الى ذلك .. وأصبح واضحا أيضا ان الاتصال الجنسى داخل الفنادق محفوف بالاخطار كذلك لانه عمل يمنعه القانون ..

ولذا كانت الفتاة أو المرأة المرغوب فيها ليست هى التى يكفى أن تكون ذات وجه جميل ، وجسم فيه أنوثة وأغراء ، بل التى يكون لها مسكن خاص !.. ولذا فقد كان الكثير من الفتيات على ادراك تام بأن الرغبة فى الاتصال بهن تكون أكثر وأوسع لو كانت لهن مساكن خاصة أو مشتركة مع فتيات أخريات ، ولكى يكون هناك توفير فى النفقات ، كانت طريقة اشتراك اثنتين أو ثلاث هى السائدة !..

وقد عرفت حقيقة ذلك الاتصال الجنسى بين جدران المساكن الخاصة ، وغرف الفنادق ، والسيارات ، والحانات التى تقام على جوانب الطرق النائية وحتى فى العراء تحت قبة السماء !!.. فلما زالت مظاهر الجمود الذى كان مخيما على ، وشعرت فعلا اننى قد اقتربت من ممارسة الاتصال الجنسى على حقيقته ، وهى العملية التى كنت اترقبها وانتظرها فى لهفة ، ووصفتها فى دفتر مذكراتى فى ذلك العام حيث قلت :

« الاتصال الجنسى هو « سعادة غامرة » .. شعور عاطفى طاغ .. ذوب جار من المشاعر التى تتمشى فى كيانى مع ضحكة سعيدة صادرة من صدر ناهد ممتلىء .. يتردد صداها فى أرجاء العالم

ليتصل بعشاق الماضى الخالدين ! »

هذه كلمات تدل على نفسية متلهفة عطشى الى اشباع نهمها الجنسى وعواطفها الفائرة !. الا اننى لم اتمتع ابدا بذلك الشعور اللذيذ الذى كنت أنشده . ولكنى كنت « أخرج » من كل مغامرة جنسية مثقل الفؤاد بالشعور بالخطيئة .. يحطمنى الشك ، ويلفنى الخوف من عدوى المرض الخبيث !.

ومنذ اللحظة التى تعقب الفعل الجنسى أظل أعمل ، وحمى الذنب الشديدة الوطأة تنهش قلبى ، حتى استطيع التغلب عليها وأذا بى بعد هذا الذى أظنه تكفيرا عن الخطيئة ، على استعداد لخوض المعركة التالية دون تردد !..

كانت النساء اللاتى يمثلن الطرف الثانى فى هذه العمليات الجنسية، وهن مم ذوات الطابع الفاجر ، يبدين لى غريبات عنى كآدميات من بنى البشر .. كنا نشترك فى مأساة « التملك » التى كانت كثيرة التنوع ، متعددة الطرق حسب رغبة المرأة نفسها ، والقانون الذى يحلو لها أن تطبقه لاشباع الغريزة ... وهى وسائل كلها فجور نسائى مثير كالتمنع للاثارة ، أو التظاهر بالرغبة التى لاتشبع ، أو اتخاذ خطة تجاهل الرجل والعمل على اثارته وهى طريقة تجد المرأة فيها لذة عظمى ..

وكان كل لقاء بينى وبين أية فتاة أو امرأة للغرض الجنسى صراعا عاطفيا جنسيا ينقصه النضج ، اذ لم يكن فى الحق سوى علاقة جنسية نشأت عن الرغبة فى الانتصار أو التملك دون نظر الى الرغبة أو الحاجة التى ينشدها أى الطرفين !. ولم تكن كافية قط ، لان ايانا لم يظهـر انه ينوى أن يشيد عليها علاقـة حب أو صداقة !.

وقلت لدكتور مكسويل :

ــ حضرت مرة حفلة موسيقية فى احدى قاعات الموسيقى .. ولما غادرت القاعة وجدت نفسى واقفا بجوار « اميلى » وهى فتاة فى الحلقة الثالثة . وكنا قد تحادثنا دون أن يعرف أحدنا الآخر ،

ونشأت بيننا علاقة سريعة امتدت طوال العام الدراسي ... كانت علاقة طيبة تمتعت فيها بها الى حد الاكتفاء ! .. ومر بنا أستاذ كبير من أساتذة الجامعة فتقدمت اليه بالتحية ، وأردت أن أقدم له صديقتي فلم يحضرني اسمهـا بالكامل لانني لم أكن أعرفه ولا أعرف عملها رغم علاقة بيننا دامت نحو تسعة شهور !.. وقد قالت لى فى صراحة أنها متزوجة وأنه لايمكن أطلاقا أن تشاهد معى فى أماكن عامة ، فلم أقاوم هذا الموقف ـ الذى كنت أعتقد مع ذلك أنه خدعة ، مقصود بها احاطة نفسها بالخيال والغموض ..

ودبرت مكانا للقائنا فى مسكن لاحد أصدقائى أعارنى اياه عن طيب خاطر كلما اتفقنا على لقاء .. وكانت « اميلى » امرأة ناضجة فى الثلاثين بديعة الجسن لايهمـها الا أن تكون عملية وسريعة فى ارضاء رغباتهـا الجنسية التى تستسلم لها آستسلاما تاما ، ثم تنصرف فى سيارة أجرة وترفض أن أوصلها آلى مسكنها !..

ولم تذكر لى أبدا اسمهـا الحقيقى أو اى شيء عن حياتهـا الزوجية .. وقد كان ظاهرا من تصرفاتها ومن مظهرها وزيهـا أنهامثقفة وثرية .. وكان واضحا جليا من ولائهالمواعيدها الاسبوعية معى أنها كانت فى حياتهـا الزوجية بعيدة البعد كله عن اشباع رغباتها الجنسية ..

وقد آستمرت الحال بيننا على هذه الطريقة بضعة شهور بلغنا فيها ذروة المتعة ... ولما آنتهى العام الدراسى رحلت الى بلدى لقضاء عطلة الصيف بعد أن وعدتنى بالكتابة الى فى الخريف ... ولكن قبل أن تتصل بى كتابة التقيت بها أثناء خروجى من الحفلة الموسيقية كما ذكرت ... ودون توقع ... وقـد أدركنا كلانا أن العلاقة الجسدية المتينة التى دامت بيننا شهوراً طويلة قد زالت واختفت من حياتنا ، وحل مكانها عدم الرغبة فى تجديدها ...

وقد سرنى أننى لم أسمع عنها أبدا بعد هذا اللقاء الاخير ...

وحلت « هيلين » وهى فتاة فى الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها مكان « اميلى » وكانت تعمل فى شركة زراعية منعزلة على

مقربة من « ميدل تاون » .. تم لقاؤنا عند زيارتها أقرباء لها فى نفس المدينة ، وتم تعارفنا ، واستمرت صداقتنا عدة أعوام .. فلما انتقلت الى مدينة الجامعة لتعمل هناك تحولت صداقتنا العادية الى علاقة متينة من المودة ..

وقد ظهر لى فى أول عهدنا أنها لاتختلف عن بقية الفتيات اختلافا خاصا .. ولكن بمضى الوقت وبعد أن توطدت العلاقة كانت تبدى سرورها وتلهفها ، وظهر انها ترجب بالوصول الى نهاية العملية الجنسية عن طيب خاطر .. ولكنها بعد أن قضينا ليلة ممتعة ، أخذت تبكى بحرقة وهى تردد فى لوعة وعصبية « أنها لم تكن فى وعيها وأن الشهوة الجنسية الملعونة أفقدتها زمام السيطرة على أعصابها » .. وقد أدهشنى مابدا عليها من شعور فائض بجريمتها .. فان هذا الحزن وهذا الشعور بالجرم لم يكونا مستقيمين مع ما اعترفت هى به من أن العملية الجنسية غير جديدة عليها !...

وبعد عدة أيام أتصلت بى تليفونيا وطلبت مقابلتى .. ولما اجتمعنا كانت فى حيوية فياضة واشتهاء شديد للعملية الجنسية .. ولكن مرة أخرى بعد الانتهاء من اشباع رغبتها عادت الى البكاء والندم .. وصرحت لى بأنها ترسم خطة للانتحار !.. ولم يكن هناك أدنى شك فى أنها جادة .. فأصابنى انزعاج عميق وارتبكت لموقفها هذا .. ولم أفكر الا فى سلامتى بعيدا عن هذه الفتاة الشاذة المجنونة ...

وبعد شهور طويلة اتصلت بى تليفونيا مرة أخرى عند منتصف الليل وقالت لى انها يجب أن تتكلم معى .. فشعرت عندما سمعت لهجة الاهمية فى صوتها أنه لابد من هذا اللقاء .. فتركت ماكنت اعده للامتحان فى الصباح التالى ، وذهبت اليها ..

ولما التقينا وجدتها فى هياج مروع .. مقسمة المشاعر نحو الاتصال الجنسى أو العدول عنه خوفا من رد الفعل ، وعادت تردد عزمها على الانتحار ..

وقد هدأت من روعها ونصحتها بعدم التفكير فى الانتحار مرة

أخرى ، وعلى ترك ذلك الشعور المزعج الذى يعقب كل عملية جنسية يمر فى سلام من افق خواطرها ...

وبرغم جهلى وقتئذ بهذا النوع من العلاج النفسى « التحليل النفسى » فقد لاحظت أنها فى حاجة الى مثل هذا العلاج لخطورة حالتها .. كنت أريد أن أساعدها جهد استطاعتى ، فسألت زميلا لى فى القسم النهائى من كلية الطب أن يشير على بما يراه فأشار بعلاج نفسى ثم أعطانى كتابا عن هذا العلاج واسم طبيب اخصائى فى التحليل النفسى ، فأرسلت الكتاب والاسم الى « هيلين » وحاولت ان أنساها .. ومر عام قبل أن أسمع عنها مرة أخرى .. ولكن هذه المرة كانت فصل الخطاب !.. اذ وجدت اسمها فى رأس عامود كامل من احدى الصحف يصف حادث انتحارها .. لقد وجدت فى الصباح منتحرة فى فراشها نتيجة تعاطى عدة أقراص منومة ، ولم تترك مذكرة بسبب ذلك .. كما وجدت مذكراتها واوراقها الخاصة محترقة وكذلك عناوين أصدقائها ومعارفها !.

وقلت لدكتور مكسويل أخيرا :

ـ لقد كنت محظوظا لانى أصبت بقرحة المعدة التى أتت بى الى هنا للتحليل النفسى .. والا لتعذر على أن أمارس حياة جنسية فيها اكتفاء واشباع ناضج !..

* * *

الفصل الخامس عشر

معان جديدة للعلاقة الجنسية

« انهم سـعداء .. فهم
على الاقـل رأوا فى الحـلم أن
قلبين اندمجا فى قلب واحد.. »
ماثيو أرنولد

كانت كل تجاربى الجنسية فى السنوات السابقة لتحليلى النفسى ـ فيما عدا علاقتى بمرجريت مدرستى ـ عدائية مليئة بوسـائل الاخضاع والقهر ، والمبالغة .. ولم ينجم عنها أية متعة أو اكتفاء !. وكانت المخالطة الجنسية قد جعلت منى انسانا متـوتر الاعصـاب مذنبا.. وفى الغالب نهبا للخوف من اننى قد اصبت بمرض تناسلى او قد تسببت فى ان تحمل شريكتى فى العملية ! ..

كنت مقيدا ليست لى سوى حرية قليلة فى الاختيـار . وكنت مدفوعا الى هذه الاتجاهات والنوازع بقوة غير محكومة ولا مقيدة .. وغالبا ماكانت كل مغامرة جنسية مشفوعة بشعور بالجرم ، وانقباض نفسى يلازمنى أسبوعا أو أكثر !..

وكنت اكفر عن الخطيئة بشغل نفسى بالعمل ، وممارسة الرياضة ، وأخذ حمام بارد ، والسير الطويل .. وكان يعقب مثل هذه « الدورات » هبوط وانخفاض فى مطالب الغريزة الجنسية فتهدأ ثورتها ..

وكاد هناك شيء من الاختلاف فى علاقتى مع «مرجريت» مدرستى السابقة . ومع ذلك ، وبرغم علاقتنا المتينة فقد كنت اشعر بخجـل مبهم ، لاننى كنت على يقين من ان هناك دافعا قويا يكمن وراء حاجتى القصوى لمثل هذه المرأة التى فى مثل سن امى ! ..

فلما كنت اقضى العطلة الاسبوعية معها كنت احس اننى اكثـر ضيقا واضطرابا وشعورا بالاكتئاب برغم ماكانت « مرجريت » تبثه فى نفسى من أمل .. أمل عثورى على فتاة من سنى تفى بحـاجتى

الى الحب العميق الذى لم أجده ولم اعرف مثله الا معها هى ! ..

وقد كانت مخاوفى المزعجة من الامراض التناسلية كثيرة لا تحتمل. وكانت تسبب توتر اعصابى وتؤثر تأثيرا بالغا على توازنى النفسى..

وقد حدث قبل أن أقدم على التحليل النفسى .. فى نفس العام ـ وكانت مخاوفى من عدوى الامراض التناسلية كما قلت شديدة التأثير على أعصابى ـ حدث أن كنت مع صحاب لى من الجنسين نقضى ليلة حمراء عربيدة .. ودفعنى تأثير الخمر الى ان ارغم شريكة لى ، كانت هى الاخرى ثملة، على ان ترضخ لرغبتى الجنسية بعد ممانعة ومقاومة عنيفة ! . وقد قالت فى صراحة انها لا تبدى هذه المقاومة لانها فتاة محتشمة أو عذراء طاهرة ، ولكن لانها فى الحقيقة تفضل ان تبقى مخلصة جسديا لرجل واحد تحبه ! .. ولكنها فى النهاية رضخت تحت تأثير الجو الذى كان يسود الموقف ، والخمر المثير !..

وفى الصباح التالى اخذت تبكى فى حرقة وتلقى على اللوم لاننى ارغمتها على نكث العهد الذى اخذته على نفسها وسبب لى هذا اللوم قلقا مثيرا وحزنا شديدا .

ومؤخرا فى ذلك اليوم ، كان انقباض نفسى وجزعى قد تحولا الى ألم شديد لاننى اكتشفت بقعا حمراء فوق عضوى التناسلى ! . فأسرعت الى طبيب الاسرة ظنا منى بأن هذه البقع هى عوارض مرض الزهرى المروع .. وكان الطبيب هو طبيب اسرتنا الذى طالما رعانى خلال طور طفولتى ، فلما رأى البقع انفجر ضاحكا كعادته وقال مطمئنا : « هذا نوع من طفح جلدى ينشأ عن أكلة « جنبرى » أو أى طعام آخر مثله وليس مصدره العملية الجنسية »

وهنا قال دكتور مكسويل : « أن خوفك الشاذ من اصابتك بمرض الزهرى كان شديدا صارما ..وخطره الفعلى ـ كما اعرف ـ لايكون الا تافها بسيطا اذا اتخذ المرء منه حيطة كافية واحتراسا عاديا » ..

وقد لفت نظرى الى مخاوفى غير العادية وقلقى وجزعى بشأن العملية الجنسية .. ثم عمد الى اثارة خواطرى الخاصة بمرجريت

وهى التى – كما قال – لايمكن ان تكون مصدر خـوف من مرض تناسلى . قلت وانا مستلق فوق المضجع :

– ان الذكرى تعود بى الى اسبوع قضيته مع « مرجـريت » يادكتور مكسويل .. وظللت بعد قضائه لبضعة أيام نهبا لمختلف مشاعر الانزعاج والجزع .. خاصا بما يمكن ان يكون قد اصابنى من عدوى خبيثة .. وكنت مرتبكا وفى حيرة من خوفى هذا .... كنت اعرف ان خشيتى هذه سخافة تامة ومع ذلك فقد ظل هـذا الخوف يلح على ولا يفارقنى ! ..

وقد كان دكتور مكسويل فى شوق شديد ليفهمنى ان هذا المثـال جزء من نماذج يعرضها على .. وبين لى فى وضوح كيف أن عقدة الذنب عن الجنس تمتد الى الماضى .. وذكر دكتور مكسويل ان عقدة الذنت تنشأ مع الانسان وهو طفل فتضخم كل هناته مهما تكن تافهة الى ذنوب وجرائم ، وتجعله يحس بشعور غامض بأنه آثم مذنب يستحق العقاب ! . ثم ذكر لى ان مخاوفى التى كونت عقدة الذنب هذه نشأت عن عبثى فى طور الطفولة مع رفيقاتى الصغار من سـن السادسة ، ثم بعد اربع سنوات وأنا فى طور المراهقة مع بنات الاسرة والمعارف سواء كان بالفنادق او الاستنماء وهذه الحالات كانت تترك تيارا خفيا من الخوف فى كيانى ! .. واضاف الى ذلك ان الذنب والشعور بالجزع اصبحا فى حالة توتر زائد عنـدما بدأت العـلاقة الجنسية الحقيقية فى أيام الدراسة الجامعية لان هذه « التجـارب الجنسية » ترتكز أساسا على الاغتصـاب والتغرير اكثر ممـا ترتكز على علاقة الحب أو الصـداقة ... ولذا فالخوف الشـاذ (الفوبيا » من عدوى الزهرى أو الأمراض الخبيثة يبرز من بطن هذه التربة غير الصحية ! .. »

ثم قال : « ومثال ذلك ان الالم الشديد والخـوف البالغ اللذين كنت فريسة لهما عندما رأيت البقع الحمراء فوق عضو التناسـل عندك بعد ليلتك مع رفيقة حفلة الرقص ، لم يكونا سوى نتيجـة للقسوة التى لازمت تصرفك مع الفتاة واخضاعها لرغبتك وهى تحت

تأثير السكر والهياج الجنسى بعد أن قاومت طويلا ولكن ليس الى النهاية .. لانه من غير المعقول لو كانت قد نشأت من العدوى ان تظهر اشارات هذه العدوى فى الصباح التالى العملية .. وهذا طبعامعروف لك كرجل يدرس الكيمياء وما يتصل بها من علوم طبية .. »

حقا كان يجب ان أتذكر الحقائق الاولية المعروفة والتى مرت بى أثناء دراستى الطبية عن الامراض التناسلية والتى منها أتبين فى الحال ان علامات العدوى الزهرية لايمكن ان تظهر فى اليوم التالى العملية الجنسية ! ..

فلما زالت شكوكى وتكشفت لى انفعالاتى ، كنت شديد الرغبة فى أن أغير اتجاهاتها واعمل على رسم الطريق السوى لها بهجوم سريع مضاد لاستعادة الوقت الضائع ... ولكن دكتور مكسويل ، مع هذا ظل متمسكا بخطة الترتيب والاناة .. فقد أدرك أن تلبية الرغبة الجنسية عندى كانت متجاوبة تماما مع بقية مشاكلى ومتفقة معها فى الاتجاهات ، كمسائل التنازع والاعتداء والمغالاة فى التمسك بحالات الرجولة ، والاعتماد على النساء ، والمخاوف ، وحالات الرعب من الاب أو الرجال الاكبر سنا .. وازاء هذه الظروف كان لابد التحليل النفسى من السير بطيئا حتى يستطيع بخطاه الوئيدة تغيير أسس « النماذج » و « الاوضاع » التى تسود ما يتصل بحياتى من علاقات جنسية ... وقد وجدت فى أول الامر ان « وصفته » العلاجية من الصعب قبولها لان تعلقى بالمسائل الجنسية كان يبدو لى فريدا فى نوعه ، وكان الوحيد الذى يسترعى اهتمامى بحيث تصبح الحياة عندى عقيمة بغيره ولكن سرعان ما تفهمت نظريات دكتور مكسويل عن العلاقات الجنسية ، حتى فى حياتى اليومية العادية ...

وكنت . وقبل أن يبدأ علاجى النفسى ، قد أتصلت بفتاة تدعى « مارتا » ، وهى طالبة معى فى الجامعة تدرس القانون ، وكانت تعد نفسها لتبدأ حياتها القانونية كمدعية عامة فى النيابة ... وكانت لا ترغب فى الزواج رسميا الا بعد مرور بضع سنوات فى علاقة جنسية معى على شرط ان تكون معتدلة وغير مقيدة بمطالب ملحة ! .وكانت

« مارتا » جميلة ، ملفتة للانظار جذابة ، ذات ذكاء .. تحب الموسيقى ، وهوايتى المفضلة « الجولف » وكنت ابذل جهدى كى أنمى علاقة المودة بيننا .. كنت متلهفا على ذلك ، ولكنى لم اشعر مطلقا براحة من معاشرتى لها ، لانني كثيراً ماكنت أشعر بأنني خامد العزيمة ، منقبض النفس ، لا أستطيع أن امنع نفسى من البكاء الا بصعوبة شديدة ، اذ أجدها وقد أصيبت فجأة ببرود جنسي فائق الحد .. لقد سبب لى هذا تعاسة لا تقدر ، اذ كانت حماستى تزول كذلك ! ... وكنت احيانا ما أدرك ان شريكتى - لسبب مبهم - لا تظفر الا بقدر محدود من السرور والثقة .. ولكنني لم اكلف نفسى فهم صفة ذلك السرور لديها أو عمق اثره فيها .. وفى ذات ليلة - فى مستهل العام الثانى من علاجى النفسى - قالت لى « مارتا » مفسرة : « جون .. انك تغيرت ... لا أستطيع ان أعرف كيف أصف لك ماأود أن أقوله .. ولكنى اصارحك بأننى لا أخشاك الان ونحن فى الفراش،كما كنت من قبل ! .. انك الان تقترب منى دون ان أخاف منك متصورة انك تغتصبنى اغتصابا دون الارادة منى ! .. وأقول لك الحق ، كنت وقتذاك فريسة شعور سخيف بأنك راغب فى خنقى واخماد انفاسى فى لحظة من لحظات جنونك ووحشيتك نتيجة الثورة الجنسية الصارخة فى اعماقك .. وأنت الآن ما زلت قابضا على سيطرة الرجل وقوته ..عندك من الرجولة مافيه الكفاية.. ولكن الان بعد أن تراخت توترات غريزتك .. بعض الشيء عما كانت قبلا ، فقد أخذت أشعر شعورا آخر .. فما الذى كان يحدث قديما ويسبب لى الخوف ؟

هذا ما قالته لى ، فكان وقعه مؤثرا دون ريب .. ولكنى غير مستعد الآن لمناقشة موضوع تحليلى النفسى مع « مارتا » وبدلا من اجابتها قلت مازحا :

« أنا جد مسرور ياعزيزتى «مارتا » لأنك لاحظت تحسن حالتك!»

ان هذه التغيرات التى لاحظتها « مارتا » قد تنبأ بها دكتور مكسويل ، ووقعت كما توقع تماما عندما كنت أتقدم بخطى وئيدة

فى طريق التحسن ، وحل مشاكلى جميعا ... كنت عاقدا العزم ، مصرا على استمرار النزاع مع أبى والوقوف أمامه فى موقف الند المناضل !. وهذا الاصرار خفف من عدائى لجميع من عداه من الناس، خصوصا الرجال ! .. أما أولى خطوات استقلالى عن أمى فقد أخذت أعالجها ببطء وروية ، وهذه نتج عنها تجاوب ازاء النساء فى اتصالاتى الاجتماعية العادية – وبجلاء ووضوح فى صلاتى الودية مع مارتا ..

وقد أخذت اتجاهاتى الى الظهور بمظهر الرجل المتفوق فى رجولته، تميل الى ناحية الاعتدال وعدم الغلو .. ويبدو أن دكتور مكسويل كان على حق عندما قال انه بمجرد ظهور تحسن اساسى معقول ، فهذا معناه فى جلاء ووضوح أن التحسن قد انتقل كذلك الى مجال الجنس ...

وقد يحدث أيضا تراجع وتقهقر .. اذ فى بعض الاوقات، عندما كنت أقف موقف المعارض مقاوما الدكتور مكسويل ، مناضلا فى استقتال ويأس ضد محاولاته سبر غور مشاكلى والوصول الى أعمق مما أبديت ، كنت أشعر بتوتر نفسى ، وجزع ، واشتياق !.. كنت أكره أبحاثى العلمية فى النبات التى تخصصت فيها !.. كنت أرغب فى الهروب من كل الحقائق المؤلمة لأجد نفسى فى مواجهة نزواتى الجنسية ، وفى شوق شديد لارضاء غرائزى فى كل لحظة يمكن أن أوفرها من وقت وظيفتى ! ..

وعندما انتهى طور العصيان والثورة على التحليل النفسى ، رأيت استجاباتى لنداء الجنس قد أصبحت جازمة قاطعة مرة أخرى .. فكان من الممكن اذن الانتقال فى تقدم الى المستوى الناضج الكامل ..

وكثيرا ماكنت خلال جلسة التحليل النفسى أعود الى مناقشة علاقتى مع « مارتا » فيسارع دكتور مكسويل الى عدم تشجيعى على اثارة هذه المناقشة قائلا انها لا تفيد التحليل الا بقدر قليل من الاهمية .. ولأنه شعر بأننى فى بعض الأوقات كثيرا ما الجأ الى محاولة النقاش فى ذلك الموضوع – وهو علاقتى بمارتا – لأتهرب

من مواضيع أخرى مؤلمة عميقة الغور ممتدة الجذور ..

وفى احدى المرات ، عندما اصررت على أن اروى تفصيلات لقاء مع « مارتا » فى عطلة أحد الأسابيع ، أخذ يشرح لى فى لهجة تشوبها بعض المرارة والحدة قائلا : « أحسب أنه من الخير ألا نهتم كثيرا بموضوع غرامك ... خصوصا وان العلاقة الجنسية ليست لها الأهمية التى تتصورها . ولكن من الجوهرى لك أن تدرك موقف شخصيتك ، وسماتها العدوانية القاسية ، وروح الشر المتسمة بنزعة القتل وما تتركه هذه كلها من تأثير فى نفسيتك وحياتك ... وبعد كل ذلك فالعلاقة الجنسية لا تحدث أثرا كبيرا ... ولكن عد بفكرك الى الرغبة فى القتل ، وما نتج عنها ... ان الرجال لايفسقون بالنساء عن طريق الاغتصاب ، لأن فى استطاعتهم أن يشبعوا غرائزهم الجنسية عن طريق الاتصال بالعاهرات.. ولكن الدم، والألم ، وغريزة القتل هى التى تدفع بهم الى طريق الشر .. هى التى تحركهم وتقود خطاهم ، وهم يعلمون أنهم يمارسون قوتهم الغاشمة مع المخلوقات الأضعف منهم ، ويملون رغباتهم عليها ! . ألم يلفت نظرك أنه لم يحدث قط ـ أو حدث نادرا ـ أن كتبت الصحف خبرا يروى أن نساء قمن بارتكاب جرائم القتل الجنسى ـ خضوعا لنزعة جنسية ؟ .. هذا بينما تكتب الصحف قصة بعد قصة عن جرائم اغتصاب جنسنا الخشن للجنس الآخر ! .. اذن فليس الاشباع الجنسى هو الدافع ، وانما نزعة الشر ، وحب السيطرة والدم هى التى تجعل من الرجل وحشا يلذه أن يغتصب المرأة ويفسق بها كرها ، لا لشىء الا لأنه مدفوع بذلك بغريزة السيطرة .. هذا جزء منهم جداً من الحالات الاعتدائية التى تقع فى أيامنا هذه .. وهى مجال حيوى تستطيع أن تجرى فيه اكتشافاتك .. لأنك ـ كأغلبية الرجال فى مجتمعنا ـ مدفوع أيضا بعداء فائق الحد »

كانت هذه الجلسة من الجلسات النادرة فى سلسلة الجلسات الطويلة التى قضيتها مع دكتور مكسويل ، والتى أراد فيها أن يلقى على درسا مهما مجديا ..

وغالبا ماكنت أطلب الى دكتور مكسويل ايضاحا عن عقدة اوديب. اذ أنني .. كأغلبية الناس قد تقدمت الى العلاج النفسي وراسي ملىء بخليط من الآراء عن علم النفس .. لقد قرأت ــ كما قرر دكتور سيجموند فرويد ــ أن صراعاتنا الانفعالية الجوهرية تكشف عن نفسها وتبدو واضحة عندما يسوء الموقف الأوديبي ولا تتحسن الا اذا صح وضع هذه العقدة وسويت حالتها بالتحليل النفسي ..

وعقدة أوديب التي ذكرت في أساطير الاغريق تتلخص في ان أوديب قتل أباه دون أن يعرف أنه والده ، وتزوج من أمه ، فلما عرف الحقيقة ــ ولو أنه غير ملوم أصلا في الواقعة ــ فقأ عينيه لهول اثمه عقابا لنفسه على هذه الجريمة الشنيعة ! . .

وكما فهمت أطلق « فرويد » اسم « أوديب » على المشاعر التي تدور في نفس الطفل حول ميله لاشعوريا للاستحواذ على أمه واستئثاره بها دون أبيه الذي يبدو في نظره منافسا خطرا له .. فينظر اليه كأنه عدو لدود يناجزه العداء ويشعر بالغيرة منه .. وقد يتخيل في بدواته وأوهامه أنه قتل أباه وتزوج من أمه ! . ثم بعد ذلك يشعر بالرهبة والخوف من أن أباه سيقرأ حتما أفكاره ، وأنه بعد أن يكتشف نواياه المجرمة سينتقم لنفسه منه بتدمير أعضائه التناسلية أي باخصائه .

والحل السليم لهذا الموقف الأوديبي ، أن يتقمص الطفل شخصية أبيه ، ويتطبع بطباعه ، ويسعى في المستقبل الى البحث عن فتاة خاصة به كما أن لأبيه امرأة خاصة به ، وبذا تتبدل نزعات الشر فيه الى علاقة طيبة بأبيه . فاذا تعذر على « عقدة أوديب » ان تكشف عن نفسها بالطريقة الصحية فربما استمر الطفل بقية حياته يعاني من وقوعه فريسة الخوف من الخصاء ، مما يسبب له اضطرابا شديدا في علاقاته الجنسية بالنساء .

ولقد رأيت خلال أحلامي أمثلة من الصراع الذي تسببه « عقدة أوديب » وبدأت أشعر بالخشية من أنني فقدت شيئا له أهمية .. شيئا حيويا جوهريا .. فلما سألت دكتور مكسويل عن ذلك أجابني

فى بساطة قائلا : « يجب ألا تنزعج من أجل ذلك .. ان مايهم فى هذه الحالات أن تتغلب على مشاكلك الأساسية التى تتنازع مجرى سيرك فى الحياة والتى تبرز فى علاقاتك مع الناس .. هذا هو ماينبغى ان تهتم به .. أما ماعداها فهباء لا وزن له »

لقد مضى وقت طويل .. خمس سنوات .. منذ ذلك اليوم عندما صحت قائلا لدكتور جولد شميدت : « يالجهنم الحمراء يادكتور جولد شميدت ! . أنا واثق من سلامة حياتى الجنسية » ! . . وكانت لهجة قولى وما فيها من تعجب ودهشة صادرة من أعماق نفسى .. لأنه ــ طبقا لما جرى عليه العرف عن الجنس ــ لم تكن لدى مشكلة حقيقية فى حياتى الجنسية .. لقد كنت أختلط مع النوع الآخر بطريقة طبيعية فيها تودد وملاطفة تقليدية كما يحدث عادة بين الرجل والمرأة ... وكنت أمارس هذه العملية فى حيوية ونشاط وخبرة ظاهرة .. ولم يكن لدى أبدا أى دافع نحو ممارسة العملية الجنسية مع النوع المماثل... او اى انحراف عن «القواعد» العادية.. وهذا ماكنت أعنيه لما أردت اقناع دكتور شميدت بأن حالتى الجنسية لا غبار عليها .

ولكن الواقع أنه كانت هناك أخطاء كثيرة ومشاكل عديدة وثيقة الاتصال بحياتى الجنسية .. مشاكل يرجع عهدها الى الماضى البعيد فى طور طفولتى .. اننى الآن أرى فى وضوح تام المشكلة الحقيقية أوأم المسائل .. أراها وقد حلت وسلس قيادها ثم تهاوت وزالت ، لأننى تعلمت وأدركت أن السعادة العميقة يمكن للأنسان أن يجدها فى الصداقة المتينة التى تسود العلاقة الجنسية بعد أن تزول الحواجز الزائفة .. وكان لا يمر وقت طويل حتى أعثر على المرأة وأهبط عليها كغريب من سمائى التى يطلق عليها اسم « الرجولة » ثم أدخل الى دنياها لأبدأ المعركة .. لأستحوذ عليها بأى ثمن ! .. ولكن الآن تبدلت الحال .. ليس الأمر كما كان قديما ... لا أود أن أشبع غريزتى الجنسية وأقنع بتلك العلاقات التى لم يكن يكلفنى جنى ثمارها غير التقدم خطوة واذا بى أنال الثمرة الشهية . اننى أود أن تكون

علاقتى الجنسية مرتكزة فوق قاعدة من التفاهم والرقة التى تنتج عنها رغبة جسدية ، واشتهاء متبادل بين الطرفين لا أشعر فيه بعداء نحو شريكتى .

لقد أدركت الآن أن العناق يختلف عن العناق السابق بعد أن تغلبت على كراهيتى التى كانت تملك زمام نفسى .. ولم تعد هناك بعد عمليات جنسية يعقبها الخوف من عدوى المرض الخبيث . . وأصبحت الدوافع التى لها المقام الأول عندى لاتتسم بغير الصداقة والحب .. وهى التى يجب أن تكون الأسس التى تبنى عليها الرغبة الجنسية والاشتهاء العاطفى .. علما منى بأن هذا الحب لا بد أن يكون متبادلا ...

وقد ادركت أن هذا من المستطاع تحقيقه .. وفى دهشة وذهول تبين لى أن « مارتا » قد أظهرت ما أنشده .. اذن فمن المستطاع أن تبادلنى الحب نظير حبى القوى الصادق ...

وقد نتج عن نمو هذه الرغبة وهذا الاشتهاء النقى الجديدانفعالات ذات معان تتصل بالعلاقات الجنسية ، والفضل فى ذلك للتحليل النفسى .. وكانت المعاملة الطيبة التى يخصنى بها دكتور مكسويل قد منحتنى أيضا القدر الكافى من الاستقلال الانفعالى والقوة النفسية التى تمكننى من تأسيس بيت وأسرة ، وبث فى أعماقى الرغبة فى أن أكون والدا سويا ... أنا راغب أشد رغبة فى الزواج لأنى شاعر الآن بأن العلاقة الجنسية تنمو خلال الصداقة التى لا تنتهى بالزواج أو فى انتظار مجىء الاطفال ...

* * *

الفصل السادس عشر

الخنـــوثة

«انطباعات من مئات الأنواع..
حسية ، حيـوية ، محببـــة ،
متعددة الألوان» **جوته**

« لا تبدو هذه الحادثة ذات أهمية يادكتور مكسيويل . ولكنهـا طرأت فجأة على فكرى .. وقـد رأيت أن أذكرهـا لك ، ولو أننى أشعر بالخجل من أجلها . لقد ارتكب صديق لى حماقة فى الليلة الماضية جعلت منه مغفلا ساذجا... انه أحد الكيمائيين فى الشركة الزراعية معى .. شاب ظريف من العزاب الراسخين فى العزوبية . دعانا هذا الأعزب العريق ــ نحن زملاءه ــ لتناول الغداء عنده .. وكان هـو الطاهى البارع الذى أعده ! .. ولقد أضاف الى ألوان الطعام العادية لونا آخر جديدا من اختراعه وقدمه لنا كنموذج لمهارته فى الطهو ... وقد ظل العجب مستحوذاً على طول المساء وأنا أفكر فى « جـاك » لقد كنت أعتقد أنه ليس من الصواب أن يجد الرجل متعة كبيرة فى طهو الطعام » .

فلم يضيع المحلل القابع وراء المضجع كثيرا من الوقت لسـبرغور هذه الظاهرة ، بل قال متسائلا : « وما الذى يزعجك ويشغل بالك من هذا ؟ .. دعنا ننظر فى الأمر : أليس هناك عظماء فى كل فن من الرجال ؟ . فهل اشتمل رد الفعل عنـدك على عنصر مـن عنـاصر الحسد ؟ »

لقد دارت خواطرى عن صديقى « جاك » فى تلك الساعة حـول طهوه للطعام واجادته هذا الضرب من الهواية .. وأخذنا ــ أنا ودكتور مكسويل ــ نتناول هذه المسألة بالتشريح الكامل .. وقد كنت ــ لحد ما ــ على استعداد لمثل هذا النقاش .. فقد سبق أن ناقشنا من قبل خواطرى الحرة عن الرجال المخنثين أشباه النساء ، وكانت

تلك الخواطر التى خطرت لى وقتئذ نقطة أو نقاط تهديد ـ كما يظهر ـ مسلطة على رجولتى أنا شخصيا ! ..

وكان الدكتور مكسويل ـ كما ظهر من تصرفه ـ غير راغب فى سبر غور هذه النقطة الحساسة قبل أن يستطيع جنى محصول أوفر .. ولاشك أننى كنت فى موقف عدائى ، مناجز من « جاك » فى حين أنه لم يكن هناك دافع يدفعنى لهذه المناجزة ! .

فى بعض الأوقات يكون المرء أكثر تذكرا للأمور منه فى أوقات أخرى .. وقد أضاءت تلك الساعة التى ناقشنا فيها خواطرى تجاه جاك « قطاعا » هاما من انفعالاتى واحساساتى ، اذ كان واضحا أننى ربطت موضوع طهو جاك مع تدبير المنزل الذى تقوم به النساء.

وكشف لى دكتور مكسويل عما كنت أجهله .. أرانى أن عقدتى النفسية منعتنى من مقارنة مائدة « جاك » بمائدة الطعام الفخمة فى فندق « ريتز شيرى » حيث الطهاة من الرجال ، وهى مقارنة لو تمت لأمكن كبح جماح ثورتى أو على الأقل التخفيف من غلوائها ، ولأمكن أن أفاخر فى اليوم التالى بمثل صديقى « جاك » .. الطاهى الهاوى ، الذى يستطيع أن يتبارى فى الطهو مع قادة فن الطهو ! ..

وهنا أقرر أننى ـ أحيانا ـ أقوم «بتجارب» فى الطهو .. وأحاول كشف طرق أخرى لطهو البيض ، طعامى المفضل .

وزاد دكتور مكسويل على ذلك أنه لاحظ أننى أشرت مرارا عند افضائى بخواطرى وأحلامى الى أننى أتقن صناعة الكوكتيل وغيره من المشروبات المزوجة ! . وهى خبرة لا تختلف كثيرا عن الخبرة التى أظهرها صديقى « جاك » فى مأدبة أمس لأصدقائه .

وقلت لدكتور مكسويل : « انى أفكر .. أعود بذاكرتى الى الوراء .. ولا أستطيع « هز » الصورة .. ان المشهد نصب عينى الآن .. فى بيت أسرتنا القديم فى « ميدل تاون » ... اننى سعيد جدا .. أمى صرحت لى بأن أصنع « الآيس كريم » .. انها تفضل استعمال آلة قديمة لصنع « الآيس كريم » ذات طراز عتيق .. لها ذراع تدار باليد ! .. وكان عمرى خمس سنوات .. وبعد ما انتهيت من العملية

قبلتنى أمى وأعطتنى جانبا كبيراً من الجيلاتى المحشو بالفاكهة والمكسرات فى كوب كبير .. لقد كانت « آيس كريم » من الفراولة .. وهى النوع المفضل عندى من المثلجات .

« وأذكر كذلك مشاهد مشابهة من الماضى وأنا فى طور الطفولة عندما كنت أتبع أمى فى تحركاتها وهى تعمل فى « المطبخ » وأساعدها فى تجهيز الطعام .. وقد وضح لى فى سرعة وصفاء أن فن « الطبخ » كان متصلا تماما فى عقلى بعلاقتى بأمى ، وطريقة الحياة النسائية .. وان صديقى « جاك » وهو فى بيته قد استولى قسرا على المكان الذى كنت أحتفظ به فى ذاكرتى .. وهذا هو السبب فى اننى كنت منزعجا منفعلا فى ذلك المساء برغم ما ظفرت به فى دعوة الغذاء من طعام شهى ومتعة بالصحاب » ...

وقد التقت وجهة نظر دكتور مكسويل مع ما أبديت من آراء ثم أضاف تعليقا من عنده بأسلوبه المعتاد ، وفراسته الحادة البارعة فقال : « ان جاك بطريقة ما ، ولأسباب خاصة فى الغالب أكثر براعة من والدتك فى فن الطهو .. وهذا هو السبب الذى جسم من رد الفعل عندك . وسبب هذا النكوص . »

وقد أدركت أن دكتور مكسويل يريدنى على أن أحاول فهم مسألة جاك كجزء من عقدة الخنوثة التى سيطرت على . وقد صادفت رغبة دكتور مكسويل تجاوبا عندى لأننى كثيرا ماكنت فريسة ارغام شديد يجعلنى أعتبر كل حرفة أو صنعة اما « مذكرة » يقوم بها الرجل ، أو « مؤنثة » تقوم بها المرأة ولا تطفل من أحدهما على الآخر فى « اختصاصه » أو اقحام ! . وقد كانت حياتى فعلا فى « ميدل تاون » ذات نظام رتيب صارم بسبب هذه العقدة النفسية .. كنت متعصبا للرأى الجامد الصارم الذى يقول ان المرأة لها حقلها ، والرجل له حقله فلا ينبغى أن يقحم أيهما نفسه على الآخر ! . مثال ذلك اننى لبثت سنين عديدة محاولا أن أجد الشجاعة الكافية لألعب «التنس» أو « الجولف » بدلا من اللعبة الاكثر رجولة « كرة القدم » لأننى كنت محاصرا بخوفى من « العقدة » .. ولم أتغلب عليها الا بمشقة

وبعد زمن طويل ! ..

وقلت للدكتور مكسويل : « يظهر انذلك حدث لى قديما وانا غلام صغير عندما أرادت أمى أن أحاول تعلم الموسيقى .. خصوصا الكمان .. فكان رفاقى من الأطفال يقابلون ظهورى وأنا أحمل «الكمان» ذاهبا الى معلم الموسيقى بصياح مرتفع قائلين « المخنث » .. كما لو كنت غلاما له مظاهر الأنوثة لا لشىء الا لأننى أحمل آلة الموسيقى « الكمان » لزعمهم انها آلة موسيقى « مؤنثة » ! . » ...

ولذا كانت تلاحقنى « عقدة الانوثة » أينما سرت فى طرق « ميدل تاون » فى هندام ملفت للأنظار وان يكن كل مافيه خاصا بالذكور .. واشتدت توترات نفسى حتى اننى أذكر أننى رجوت أمى أن تطلب من معلم الموسيقى أن يعطينى الدرس فى البيت .. وفى يوم الدرس كنت أغلق جميع نوافذ البيت .. حتى فى فصل الصيف ! .

وفى المدارس الثانوية كانوا اذا ما لا حظوا خنوثة فى تصرفات الطالب لا يقرون الحاقه بقسم الآداب ، خصوصا الشعر ، أو اشتراكه فى نوادى التمثيل أو الفنون لأن فى هذا الاقرار خطورة ! مع اننى كنت راغبا أشد الرغبة فى التعرف على فن القصة ، وكتابة المقال ، ونظم الشعر فى تلك الأيام .. أيام الدراسة الثانوية . وأقرأها فى شوق ورغبة ، ولكن فى الخفاء ...

والأغلب أن اختيارى التخصص فى الكيمياء ودراستها لتكون مهنتى يرجع لتلك العقدة اللعينة « عقدة الأنوثة » التى كنت فريسة لها .. ولأننى حسبت موقنا ــ فى ذلك الوقت ــ أن الكيمائى معناه فى نظرى ، الشاب ذى القبضتين المتينتين الذى يمضغ الطباق ، والذى يغامر بحياته لاجراء تجاربه أمام فرن متوهجة النار .

أنا أعرف مثل هذا النوع من الكيمائيين .. أعرف كيمائيا من هذا الطراز .. وهو والد أحد زملائى . وكنت على الأرجح صالحا تماما لتدريس مواد الرياضيات ، والطب ، والعلوم الطبيعية .. ولكن المدرسين الذين كانوا يدرسون هذه المواد فى المدارس الثانوية كانوا ــ فى نظرى ــ لا يتمتعون بالصلابة والمظهر العدوانى الذى يجب أن

يتوفر فى الرجال ... ليسوا من الطراز الذى يملك هذه الخصائص « المذكرة » ...

ومن حسن الحظ .. فرغما عن البواعث العصابية فى نفسى ، فان قرارى بأن أكون كيمائيا قد جاء متفقا مع نبوغى وتفوقى فى دراستى .. ومؤخرا .. بعد ما دخلت الجامعة وأخذت « عقدة الرجولة » تتقهقر متراجعة ، أخذت أنفض عن كاهلى خديعة نفسى وتوهماتى بأن الكيمائى لكى تتوفر فيه الصلاحية يجب أن يكون كالترس الذى يحدث الضوضاء فى مصنع الصلب أو بعبارة أوضح يجب أن يكون « جعجاعا » مشاغبا ..

وقد كان أكثر نشاطى تحركه هذه العقدة « المذكرة » .. عقدة الرجولة ، البالغة الأثر فى تصرفاتى واتجاهاتى .. فكنت مكرسا نفسى القنص ، وصيد الأسماك ، وتسلق الجبال .. ناظرا بازدراء للعبة الجولف ، ولعبة التنس ! . ولم يكن هناك فى الجانب النسائى الذى يبدو فى شخصيتى غير هوايتى الموسيقى ، ومع ذلك فاننى لم أشترك أبدا فى عزف ثنائى أو فى قاعة موسيقية مع النساء . . وكان اشتراكى مقصورا على الرجال والأشخاص المستكملى الرجولة .. وكنت أهرب من الموسيقيين البارعين اذا تبين لى من مظهرهم أن بهم رخاوة أو خنوثة ! ..

وقد قوت علاقاتى الجنسية وأنا فى الجامعة من الصراع الدائر فى نفسى بين الوضع « الرجالى » والوضع « النسائى » ، حتى أثبت بالتجربة أننى لست فاقد الرجولة ..

لقد كنت مبيتا النية على ارتياد أحد بيوت الدعارة للتأكد من صواب فكرتى ولكنى خشيت الأصابة بمرض خبيث .. ومع ذلك فلم أجد سعادة فى ذلك الطراز من العلاقات الجنسية التى كانت تشجعها فلسفة « ميدل تاون » .

وقد ألفيت نفسى بعد انتحار « هيلين » والهزة التى شملت كيانى من هذه الصدمة ـ ألفيت نفسى فى فراغ يحتاج الى أن يملأ .. وقد ساعدنى انشغالى بالعلوم . ولكنى لم أستطع أبدا أن أستمر فى عملى

داخل المعمل لمدة أسابيع متوالية كما يفعل بعض الناس ! .. فلم أتريث فى العودة الى هوايتى ورغبتى القديمة فى الآداب والشعر وأخذت أوسع رقعة قراءاتى ... وكان ذلك الوقت أول اتصالى بالمفكر الفيلسوف « ليوتولستوى » فقرأت « الحرب والسلام » ثم « آنا كرنينا » ثم « البعث » .. وكل كتاب من هذه التحف الأدبية خلق شيئا جديدا فى حياتى .

وعلاوة على تحف « تولستوى » قضيت العديد من الساعات المتعة مع « توماس مان » و « رومان رولان » و « جورج برناردشو » .. أما « دستويفسكى » فقد كان عمله كالجرف المنحدر يصعب الوصول اليه .. كان بعيد المنال على شخصيتى الفائقة الحساسية .. فلم أفهمه ولم أدرك مرامى كتابته ... ولكنى بعد بضع سنوات ، وبعد تحليلى النفسى صار فى مقدورى أن أفهم عبقريته الحقة .

وعندما أخذت عقدة الرجولة عندى ينطلق بخارها الحبيس فى أعماقى ، بعد أن قاربت الانتهاء من سنى دراستى فى الجامعة أصبح فى مقدورى أن أبدأ صداقة جديدة .. علاقة كنت أتجنبها وأنكرها من قبل .. وهى علاقتى بأحد زملائى فى الدراسة « ماكس » الذى كان يود دائما أن يكون لى صديقا .. وكان فتى مرهف الحس ، كريم الخلق ، مهذب الطباع ، كان يندر أن يخرج مع الفتيات للنزهة ولا يميل الى الرحلات الجماعية ، ولايرتاد المشارب أو الحفلات التى تعج بالجماهير التى تتعاطى المسكرات دون قيود وربما بلا ثمن .. ولكنه مع هذه الصفات لم يكن على كل حال من الطراز الذى تتوفر فيه الجنسية المثلية ...

وكنت فى أول عهدى بالدراسة الجامعية اتجنب الاتصال به لأنه لم يكن يميل الى ، أو تجتذبه فلسفتنا الماجنة التى تسود جماعة أصحابى ولذا فقد اعتبر ، لحد ما ، من النوع الرخو « المخنث » ..

وفى احدى الأمسيات .. بعد انتحار « هيلين » كنت منقبض النفس مكتئبا وفى حاجة الى صحبة تدفع عنى ما أشعر به من وحدة

قاتمة وحزن أسود .. وبدلا من تهربي المعتاد من موعد نسائى قطعته على نفسى أو الذهاب الى دور الملاهى قررت أن أزور صديقى « ماكس » فلقينى مرحبا ، فعرضت عليه أن يقوم بجولة معى قائلا :
« هيا نقم بجولة .. انى فى حاجة الى هواء الربيع ليزيل عنى ضيق النفس الذى يسيطر على » .. وكان يعد نفسه للذهاب الى متحف الفن فاقترح أن أرافقه .. وفى الطريق الى هناك أخذ يروى لى شيئا عما يود أن يراه من أعمال فنانى القرن التاسع عشر الفرنسيين ، وعن الصور الرائعة التى تعد من عمالقة التحف الفنية .. ولكنها كانت فى نظرى أسماء عادية غير مثيرة ولا تستحق هذه الضجة التى تثار حولها أو الهالة التى يحيطونها بها .. انها مجرد اسماء رأينها اتفاقا فلم تسترع اهتمامى .. أما « ماكس » فكان يجد فيها مصدر متعة جديدة ومسرة بالغة .. ويتحدث عن لوحات « سيزان » و «رنوار» و « جوجان » فى الفة حارة ! ..

وأعترف بأننى لم « أكتشف » حقا كل أنحاء متحف الفن .. لقد زرته نعم فى أحيان قليلة ، ولمحت لوحات الفنانين المشهورة بنظرات خاطفات بنصف حماسة أو رغبة .. وقد زاد ضيق نفسى عندما زرت احدى قاعات المتحف وهى التى تحتوى على لوحات لمصورين مشهورين من الانجليز وهم « جينز بورو » و « اورانس » و « رومنى » ... ولاحظ صديقى « ماكس » هذا الضيق فضحك قائلا :

« ان لديك مقدرة فنية ونظرة صائبة ... حقا ان اللوحات الفنية الانجليزية قد بدأت وانتهت منذ عاش المصورون الافذاذ «هوجارث» و « تيرنر » و « كونستابل » .. وحتى لوحة « جينزبورو » التى قيمتها مليون دولار والمسماة « الغلام الأزرق » قد قدرت قيمتها بأكثر مما تستحق .. كان فى ذلك التقدير خطورة لأنه يقود الجمهور ويلفت أنظاره الى مدرسة كئيبة معتمة من مدارس الرسم .. » .

ثم استطرد يقول : « ولكنك سترى اليوم شيئا يختلف كلية عما سبق أن رأيت .. انت موسيقى من الهواة .. وهذا الذى ستراه

اليوم أشبه مايكون بانتقالك من عزف « كوبرين » البهيج ، السهل ، المتألق ، الى العبقرية آلتى توقعهــا أنامل « بيتهوفن » .. واليــوم ستمر بتجربة سماع النغمات التصويرية البديعة وهى ترن فى اذنيك .. فى مخيلتك .. ستسمع عبر الماضى تلك المقطوعة الكثيرة الزخــارف المقطوعة التى لحنها « كروتزر » ووضع موسيقاها الخلابة عن « فن التصوير » . وقد كان « ماكس » على حق .. لقد طلعت على دنيا جديدة مشرقة براقة متألقة ، قابلتنى عندما دخلت القــاعة . رأيت لأول مرة لوحات « جوجان » التى تهز المشاعر وتخلب الالباب بتلوينها البديع المتقن ... شعرت كما يشعر الأعمى عندما يســترد بصره بعد أن يرفع الطبيب الرباط عن عينيه فى يوم مشرق من أيام الصيف الصافى ... لقد أخذت مقطوعة « كروتزر » تشدو فى أعماقى وأنا أتنقل من لوحة الى لوحة ! . وكما قال « ماكس » رأيت شيئا يختلف عما سبق ان رأيت .. ان الفرق ظاهر بين أولئك العمالقة من رجال التصوير الذين ملأوا الدنيا بهجةواشراقا ونشوة بما أظهروا من فن بلغ الذروة .. كل فى مداره ، ومدرسته ، ومهارته التىتختلف عن غيره من زعماء الفن زملائه ... ولكن كان كل منهم فى القمة ! ..

وبعد أن انتهينا منزيارة متحف الفن انصرفنا بعد أنتأكد«ماكس» من اننى أفعمت نشوة واعجابا ... ومنذ تلك اللحظة لم نكن نفترق .. وتوطدت عرى صداقتنا .. وأخذ يقدمنى ، تدريجيا الى رجــال الفن من أساتذة الموسيقى اذ أدرك أننى ـ كعازف كمان من الهــواة مشغوف بالأنغام التصويرية التى تعبر عن مشاعرى ، وأن لى خبــرة ذواقة فى هذا النوع من النغم .. وكانت درايتى الفنية ، واحســاسى الموسيقى وتذوقى الأنغام متوسطة ، الا أننى كنت أستطيع أن أوقع اللحن فىحرارة وألوانأنغام عزفى واضفىعليهاحرارة تجعلهامشجية .. وقد « خمن » ماكس ـ وكان « فى محله » أن الألوان الحارة التى جذبت أنظارى فى الصور البارعة التى رأيتها سيكون لها نفس التأثير الذى تحدثه حرارة الأنغام التى تنقلها الموسيقى الشجية الى أذنى ... فقدمنى كما قلت الى عمالقة الفن الموسيقى وأساتذته ..

أمثال « مانيت » و « فان جوخ » و « كوربت » و « دومير » ..

ولما زالت الكلفة بيني وبين هؤلاء ، كما زالت بيني وبين «كاسات» و « بيسارو » و « سيورات » و « كلود مونت » وآخرين من عظماء المصورين في ذلك العصر البارز في تاريخ الفن الفرنسي .. أخذ « ماكس » يعرفني بأولئك الفنانين الذين أصبحوا في ذمة التاريخ .. وأخذ يوضح لي « جويا » و « الجريكو » و « فالاسكوز » كان اهتمامهم منصبا على التصوير الذي يتميز باتقان التلوين حتى لتبدو الصورة كأنها أنغام موسيقية مرسومة ..

وكان فنانو « الفلاندر » و « ايطاليا » البارزون منبع سرور عميق لي أيضا .. ولكن قبل أن أرى لوحات الفنان الموهوب « ميشيل آنجلو » .

ولم يحاول « ماكس » أن يثير اهتمامي بالفن المعاصر .. وكان السبب الذي أبداه معقولا وله أهميته ، اذ قال : « أنت مازلت فريسة بعض التوتر النفسي .. ومازلت في حاجة الى صلاحيتك للدفاع عن الفن حتى يمكن أن تقطع الطريق كله مع « بيكاسو » و « براكو » و « كاندينسكي » و « شاجال » وآخرين غيرهم من الذين سوف يأتون فيما بعد » ...

لقد كانت شهورا منعشة من الصداقة الخالصة بيني وبين « ماكس » برغم ماكنت أشعر به دائما — وفي الخفاء — من القلق والانزعاج لأن طريقته في الحياة كانت متسمة بالرخاوة ، والمظهر النسائي !. وكنا نرتاد دور التمثيل فشاهدنا الكثير من المسرحيات... مسرحيات العظيم « شكسبير » والكوميديات الموسيقية ... وكانت السمفونيات والاوبرات الكبرى مصدر سرور وترفيه ممتع ...وعلاوة على تكريس نفسه للفن كان « ماكس » في ذلك الحين قد بدأ يدرس « تشريح المدن » والتعرف على خفاياها الاجتماعية في رغبة ملحة .. وكان يجد في هذا لذة عظمى حتى أنه غير مجرى حياته العلمية من دراسة الكيمياء الى علم الاجتماع وكان يبدو عليه انه يعرف كل شيء عن « مدينة الجامعة » .. كل ركن فيها ! .. وبعد قضاء بضعة شهور

فى رفقته كنا نكشف عن خفايا الطرق ، وملحقاتها الخفية الكئيبة الكالحة فى الليل أو فى أيام العطلات الأسبوعية .. سيرا على الأقدام ، أو فى عربات الأجرة أو الحافلات .

ومن سوء الحظ أن « ماكس » غاب عن حياتى فجأة كما دخلها.. لقد تخرج فى نفس العام ولم يعد الى « ميدل وسترن » .. أما انا فقد قبلت فى قسم التخصص فى الكيمياء ، وبدأت أبذل جهودا بالغة لدراسة المقررات الأرقى ، وفى أعداد تجاربى وبحوثى .

وقد كان الحصول على درجة التفوق فى الكيمياء بين طلاب الجامعة نزالا حارا .. صراعا حقيقيا .. لأن الأساتذة يصرون على أن يكون الطالب سجل عال حافل بالتفوق فى تأدية الامتحان الدراسى . . وقبل الامتحان النهائى يجب أن يكمل بحث ناقص بواسطة الطالب المتقدم للأختبار .. وكنت أتلهف شوقا على أن أكون دائما فى القمة ، وان أنتهى من دراستى للتخرج فى سنتين أو ثلاث بدلا من الأربع المتبادلة ..

وكان لحصولى على درجة « الدكتوراه فى الكيمياء » مغزى خطير خاص .. اذ معناه استقلالى عن أبى ، وحريتى ، وافلاتى من قبضته .. ولذا فقد تفرغت فى سرعة لدراستى التعليمية دافعا نفسى الى اقصى سرعة . فريسة للقلق والاضطراب كلما حل موعد الامتحانات .. وقد تبخرت ارشادات صديقى «ماكس» واصبحت فى طى النسيان وهى التى كان يسمعنى اياها مبشرا بحياة اكثر خصبا ، وطريقا اعرض أفقا لو اتبعتها وعملت بها ..

ان التهرب من العمليات الجنسية العارضة لم يكن سوى « تزمت » فظيع تغلغل فى كيانى لاننى لم اسمح لنفسى بالاسترخاء مدة كافية حتى أوطد علاقتى .. وكانت قرحة معدتى على الارجح هى « الاحتجاج » الطبيعى ضد « الحافز » الذى كنت أرضخ له خلال أطوار الشدة التى تحيق بى ..

وكان من الممكن أن تظل « عقدة الانوثة » مسيطرة على مدى الحياة دون ريب جاعلة حياتى جحيما من الشقاء لو لم أتقدم

للتحليل النفسى ..

كانت هذه العقدة عميقة فى نفسى ، متشعبة الجذور حتى كان من المرجح ان يلازمنى الشعور بالضيق والكبت ضاغطا على دوافعى مدى الحياة لأبقى بعيدا عن نطاق ميلى الى الفنون ... ولكن بعد التحليل زال الكثير من توتر نفسى ، وكبت مشـاعرى حتى اننى اصبحت على وفاق شامل مع حبى التصوير والادب والموسيقى ..

وأحسب ان عقدة الانوثة خفت وطأتها بعد أن اكتشفت شيئين:

الاول انى عرفت أن رجل الكهف « مائة فى المائة » صورة هزلية مضحكة للذكر العادى .. لان الرجل يحمل بعض السمات التى تتصل اتصالا وثيقا بمظاهر الانوثة .. وأن جاذبية الرجل الناضج الكامل تكمن فى الخلط الجذاب للرجولة والانوثة معا

والشىء الثانى أن « عقدة الانوثة » فقدت العون والمساعدة عندما تمكن التحليل النفسى من بث الاقتناع الكامل فى نفسى فأدركت أننى رجل « كامل الرجولة » ..

وبذلك التأكيد الذى وصل الى الصميم من شخصيتى لم يعد هناك من حاجة الى ان أحاول قسرا أن أثبت للعالم رجولتى ... ومن ثم استطعت أن أفهـم الاسـتجابات اللاشـعورية التى كانت تعترض طريقى . من ذلك ما رويته يوما للدكتور مكسويل .. قلت :

ـ كان لى صديقى لا حديث له الا عن الجنس .. لا شىء فى عقله الا الحيـاة الجنسية .. هوايته المزاح مع السـيدات المتصنعات الحشمة بالتحـدث معهن عن صدورهن واطرائهـا !.. أحاول أن اتذكر شيئا عنه كان سببا فى شدة توتر نفسى .. أوه .. نعم .. ها قد تذكرت .. لقد قال لى مرة ان رجلا من النوع المنحرف جنسيا قد احتك به فى مبولة عمومية ، فثار غاضبا ورفس الرجل بقدمه وطرده بعيدا .. ولما آوى الى فراشه لم يستطع النوم وظل أسبوعا لأنه كان دائما يرى الحادثة نصب عينيه !. »

وما كدت اصل الى هذه النقطة من حديثى حتى صحت قائلا :

ـ لقد فهمتها يا دكتور مكسويل الآن .. انى أحدثك عن نفسى

.. أيضا !. ولو أننى فى حادثتى لم اكن شديد النشـــاط ، سريع العمل مثل صديقى .. لقد حدث لى مثل هذه الاستجابات ولكننى الآن بعد التحليل النفسى ، أو القســط الذى ظفرت به منه حتى الآن ، أستطيع أن أواجه كل متاعبى النفسية وتوتراتها ..

ومن تلك الذكريات ، وتلك البراهين الدامغة أخذت تدريجيــا أبنى طمأنينة معقــولة كرجل لا غبــار عليه .. وأصبحت عقــدة « الخصاء » لا تذكر الا نادرا جدا ..

وسنحت فرصة ذهبية كانت عنصرا حساسا فى القضــاء على خوفى من الخصاء .. لقد حلمت حلما يتصــل بموضوع الخصــاء اتصالا مباشرا :

« أنا فى سوق الجزارة فى « ميدل تاون » .. كان هناك العديد من انواع السجق وحلقات اللحم مدلاة من سقف المحــل .. بدأ الجزار يقطع الشرائح .. »

وهنا استيقظت مرعوبا من هذا الكابوس !.

فلما نوقش هذا الحلم ، وما ارتبط به من خواطر كان واضحا أن المبحث الاصلى هو خوفى من الخصاء بواسطة ابى !..

وكان من شأن مناقشة هــذا الحلم وغيره من الاحــلام المماثلة وكذا خواطرى الحرة أن تمنحنى اكبر الضمان على رجولتى ... وساعدت على القضاء على « عقدة الخصاء » ..

* * *

خاتمة

« سيطلع الفجر ويبزغ فى
اعقابه الضوء .. انه الفجر نفسه
الذى ينبثق ضوؤه منذ آلاف
السنين »

الآن باتون

فى ذات يوم خلال العام الثانى من تحليلى النفسى اخبرنى دكتور مكسويل انه دبر رحلة فى الأسبوع التالى لحضور اجتماع طبى فى احدى المقاطعات البعيدة وأضاف الى هذا قوله : « لقد حان الوقت لاعدادك للافتراق أحدنا عن الآخر وقتا أطول ثم اكثر طولا » ..

وكان قد أعدنى فى أول طور من علاجى لأن أعتاد مثل هذه الفرقة أو « تعطيل » العلاج ، واعتراض سيره .. وكان متأكدا من أننى أدرك ما هو الغرض من وراء الغاء بعض الجلسات ولو أن الفرقة بيننا كانت مؤلمة ، خصوصا اذا امتدت لاسبوع ..

وقد اراد دكتور مكسويل أن يخفف عنى ألم « الصدمة » عندما اخبرنى بهذا الفراق القادم ، فطلب منى بأن أتصل به تليفونيا فيما لو كانت توترات نفسى أو جزعى مما لا يحتمل ..

وقد مرت الايام فى مد وجزر ، وانتهى الامر بى الى الشفاء التام بفضل ذلك الرجل العظيم دكتور مكسويل الذى كان مشرق الوجه باسما وهو يقول لى : « ان وقتى الذى صرفته معك مهما يكن طويلا قد صرف فى موضعه لأنه أفادك فائدة عظمى » ..

ثم قال « ان المحلل النفسى الناجح هو الذى يوفق فى معرفة مصدر الاضطراب ثم يبين للمريض مكان المرض من نفسه ، ويبصره

بحالته .. وهو الذى يعرف من المريض فى هوادة كل مشـاعره ، ويدفعه فى رقة الى الافصاح عن مشاكله ومخاوفه ، وما كان يكنه فى نفسه ويخشى أو يخجل من البوح به .. وهو الذى يعينه عـلى التخلص من الكثير من حالات الحصر ليحل مكانها استقلال سليم..

ان التحليل النفسى يجب أن يرسم الطريق للمريض النفسى فى قوة ليسير قدما نحو الاتزان الانفعالى . وقال دكتور مكسويل مفسرا : « ان القليل من النـاس من يستطيعون قطع الطريق الى النهاية .. ولكن ربما أسفر عن تقدم هائل وضع قدم المريض فى هذا الطريق وجعله يرى اتجاه قدمه ويتبين هدفه الذى يسـعى اليه » .

ثم قال « اننى قد وجدت الطريق » وعرفت الى أية جهة يقودنى السـير فيه .. وهو يعتقـد اننى سـأظل أبدا فوق ذلك الطريق السديد ! ..

وخلال السـاعة الاخيرة التى قضـيناها معا وهو « يحصى » النتائج الطيبة ، ويستعرض أيضا نقط الضعف والخطر فى نفسى، قال : « لا يمكن لمخلوق قط ان يصل الى الكمـال التـام ولكن فى امكانه أن يظل تائقا اليه » ثم استشهد بكلمـات تولستوى التى بدأنا بها هذه القصة .

* * *

فهرس

صفحة

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة





www.ibtesama.com